روايات عالمية للناشئة

مذكرات حمار

كونتيسه دي سيغير

RABIE

من 10 - 16 سنة

مذكرات حمار

كونتيسه دي سيغير

RABIE

4



كونتيسه دي سيغير

كاديشون حمار بلغ به ذكاؤه أن استطاع تدوين مذكراته ، وتقلبت حياته بين السعادة والشقاء بحسب السادة الذين يملكونه ،وكان يلقنهم أحياناَ دَروساً لا ينسونها .

وكانت حياته حافلة بالأحداث و المغامرات وهو بطلها العظيم ، ولا يحب أن يسمع أحداً يقول : "غبي كالحمار" وإلا غضب وأصبح شريراً ..

صدر من هذه المجموعة :

Published by Rabie Publishing House Aleppo , Syria
P.O.Box : 7381 Tel : +963 21 2640151 Fax : 2640153
E-mail : rabie@rabie-pub.com WWW.rabie-pub.com

N6A1-24



6 214001 452117

H.FARHAT

مذكرات حمار

(كونتيسه دي سيغير)

1799 -1874

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشــراف : محمـــد كمـــال

إخراج فني : م. نشوان خريط

دار ربيع للنشر
RABIE PUBLISHING HOUSE
سوريا حلب : ٢٢٢٤٧٠٨ دمشق : ٢٢٣٠٢٨٣

مذكرات حمار

إلى سيدي الصغير

السيد هنري دي سيفير

سيدي الصغير ، لقد كنت طيباً معي ، ولكنك تحدثت بشيء من الاحتقار للحمير عامة ، ولكي أطلعك بشكل أفضل على طبائع الحمير ، كتبت هذه المذكرات وأُهديها إليك ، ولسوف ترى ياسيدي العزيز ، أنني الحمار المسكين وأصدقائي من الحمير والأتن والجحاش قد أساء البشر معاملتنا، ولسوف ترى أن لنا ذكاءً وقّاداً ، وخصائلَ رائعة ، ولسوف ترى كم كنت شريراً في صباي ، وكم عوقبت وأصابني الشقاء ، ولكن التوبة الصادقة قد بدّلتني ، وأعادت إليّ صداقة رفاقي وسادتي ، ولسوف ترى أخيراً، أنك بعد الفراغ من قراءة هذا الكتاب ، لن تقول : فلان غبي كالحمار، وجاهل كالحمار ، وعنيد كالحمار ، وإنما تقول : ذكي كالحمار ، وعالم كالحمار ، ووديع كالحمار ، وأنك وأهلك ستكونون فخورين بهذا المديح .

هيق .. هاق ! .. يا سيدي الطيب ، آمل ألا تتشبه بالنصف الأول من حياة خادمك الأمين .

كاديشون (الحمار العالم)

لا أذكر شيئاً عن طفولتي ، ولعلني كنت تعيساً مثل جميع الجحاش ، جميلاً رشيقاً مثلهم . ولكن المؤكد أني كنت متوقد الذكاء ، فأنا ما أزال أذكى رفاقي على الرغم من كبر سني ، ولقد تفوقت أكثر من مرة على سادتي المساكين الذين لم يكونوا إلا من بني البشر ، وبالتالي لا يمكنهم أن يكونوا بذكاء الحمار ..

الفصل الأول

السوق

لا يعرف الناس كل ما يعرفه الحمير ، ولا شك أنك يا قارئ هذا الكتاب لا تعرف أنه يقام كل ثلاثاء في مدينة " لايغل " سوق للخضار والزبدة والبيض والجبن والفواكه وسواها من البضائع . وهو يوم عذاب بالنسبة إلى رفاقي الحمير ، وكان كذلك بالنسبة إليّ قبل أن تشتريني سيدتي العجوز ، جدتك التي أعيش لديها الآن .

كانت تملكني صاحبة مزرعة شريرة قاسية ، فتخيل يا سيدي الصغير أنها كانت تجمع كل ما تبيض دجاجاتها ، وكل ما تدره بقراتها من حليب وزبدة وجبن ، وكل الخضار والفواكه الناضجة خلال أسبوع ، وتملأ سلالها به ثم تضعه على ظهري ، وحين أكون محمّلاً بحيث لا أقوى على السير تجلس هي فوق السلال وتجبرني على الهرولة حتى سوق " لايغل " التي تبعد ميلاً عن المزرعة ، وكنت أغضب أشد الغضب ، ولا أجرؤ على إظهار غضبي خوفاً من ضربات العصا ، وكان لدى سيدتي هراوة ضخمة ذات عقد ، ضرباتها موجعة ، وكلما رأيت استعدادها للسوق تحسرت وتنهّدت وفقت أملاً في تأخيرها .

كان سيدي يضع البردعة فوق ظهري وهو يقول : " اسكت أيها الكسول ، فقد أصممت آذاننا بنهيقك ، وإنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير ! (جيل) يا ولدي .. قرّب هذا الكسول إلى جانب الباب حتى أضع على ظهره سلال البيض والجبن والزبدة والخضار ، هذا العمل يساوي خمس فرنكات ، وأنتِ يا بنيتي (هنرييت) هاتي الكرسي حتى تركب أمك هذا الحمار .. رحلة موفقة يا زوجتي ، ولا ترحمي هذا الكسول ولا تنسي هراوتك لتضربيه بها " .

كانت الهراوة لا تتوقف عن ضربي على ظهري وخاصرتي وعنقي ، فكنت أسرع أو أهرول ، فلا تكف الفلاّحة عن ضربي ، وقد ضقت ذرعاً بهذا الظلم والقسوة ، فحاولت أن أجري لعلها تسقط عن ظهري ، ولكن أعاقني حملي الثقيل الذي يترنح بي يميناً ويساراً ، وفرحتُ لأنها أوشكت على السقوط ، فانهالت علي ضرباً بهراوتها ، حتى كدت لا أقوى على المسير حتى المدينة ، وحين وصلنا أخيراً ، أنزلوا عن ظهري المجروح السلال كلها .

وربطتني سيدتي إلى عمود ومضت لتتناول وجبة الغداء ، وأما أنا الذي أموت جوعاً وعطشاً ، فلم يقدموا لي سوى حفنة من تبن وقطرة من ماء ، واستطعت الاقتراب من الخضار في غيبة الفلاحة ،

وبلّلت حلقي وملأت معدتي بسلة من الخس والكرنب لم أذق في حياتي ألذ منها طعماً . وما كدت أفرغ من أكلها حتى رجعت سيدتي ، فأطلقتْ صرخة عالية إذ رأت السلة فارغة ، ونظرتُ إليها نظرة وقحة راضية ، حتى إنها انتبهت إلى أني مرتكب الجريمة ، ولن أذكر لك الشتائم التي رمتني بها ، فإن أيّ حمار محترم يخجل من ذكرها ، وكان جوابي عليها أن تلمظتُ وأدرت لها ظهري ، فأمسكت الهراوة وانهالت عليّ ضرباً بكل قسوة ، ففقدت السيطرة على أعصابي وركلتها ثلاث ركلات : كسرت الأولى أنفها وثلاثاً من أسنانها ، وكسرت الثانية معصمها ، وأصابتها الثالثة في معدتها ، فأسقطتها أرضاً ، وتجمّع عليّ الرجال فأشبعوني ضرباً ، ونقلوا سيدتي إلى حيث لا أعلم ، وتركوني مربوطاً إلى العمود الذي تكدس بجانبه ما نقلت من خضار ، وبقيت هناك مدة طويلة ، ولاحظت أنه لا أحد يهتم بي ، فأكلت سلة من الخضار ، وقطعت رسني بأسناني ، ورجعت إلى المزرعة بخطوات هادئة .

كان الناس يدهشون لرؤيتي وحدي ، فيقول أحدهم : لقد قطع هذا الحمار رسنه وهرب .

ويقول آخر : لقد هرب من الأشغال الشاقة .

ويقول ثالث : لا أراه يحمل شيئاً على ظهره .

ويرد عليه رابع : لأنه لا يحب تحمل أعباء المسؤولية .

قالت امرأة لزوجها : أمسك به ليركب الأولاد على ظهره .

وأجاب الزوج : سيحملك حتماً .

وأردت أن أبين رقتي ووداعتي ، فاقتربتُ من الفلاحة بهدوء ووقفت بجانبها كي تركب ظهري ، فقال الرجل وهو يساعد زوجته على الركوب : لا يبدو عليه أنه شرس .

وابتسمتُ شفقة حين سمعتُ كلمة : (شرس) ، فكيف يكون الحمار شرساً إذا عومل برقة وحنان ؟ فنحن لا نغضب ونتمرد إلا لنثأر من الضربات التي تنـــزل بنا ، وحين تحسن معاملتنا نكون طيبين ، بل أطيب من الحيوانات الأخرى كلها .

أوصلت المرأة وولدها إلى المنـــزل وهو طفل لم يتجاوز العامين ، فربّت على رقبتي ووجدني جميلاً ، وتمنى لو احتفظ بي ، وظننت أن هذا ليس عملاً شريفاً ، فقد اشتراني سيدي وأنا ملكٌ له ، وقد كسرت أنف سيديّ وأسنانها ومعصمها وآذيت معدها ، وبذلك أخذت ثأري .

ورأيت أن المرأة تكاد تستجيب لولدها المدلل ، فقفزت مبتعداً

قبل أن تمسك الأم برسني ، ورجعت مهرولاً إلى البيت .

رأتني " هنرييت " ابنة سيدي فقالت : ها قد رجع " كديشون " ولكنه رجع مبكراً ، ولماذا رجع وحده ، أظنه هرب من أمي ، وسوف أضربه مائة عصا .

حين نزعتْ عني بردعتي ورسني وليت هارباً ، وما كدت أصل إلى الأرض المزروعة حتى سمعت أصواتاً صادرة من المزرعة ، فقربت رأسي من السياج فرأيت أنهم قد جلبوا الفلاحة ، وكانت تلك أصوات أبنائها ، فأرهفت سمعي فإذا " جيل " يقول لأبيه :

– سآخذ السوط الطويل وأربط الحمار إلى شجرة ، وسأظل أضربه حتى يسقط أرضاً .

– هيا يا ولدي ، ولكن لا تقتله لأننا سنخسر ثمنه ، وسوف أبيعه في السوق القادمة .

وارتجفت خوفاً مما سمعت ، ورأيت " جيل " يهرع إلى الإسطبل بحثاً عن السوط ، فلا مجال للتردد إذن ، ولم أشعر بتأنيب الضمير هذه المرة إذا خسر سيدي ثمني ، فجريت نحو السياج الذي يفصلني عن الحقول ، وضربته بكل قويّ حتى تكسرت أوتاده وعبرت خلاله ، ومازلت أجري في الحقول على غير هدى ، وفي ظني أنهم يطاردونني ،

وحين انهارت قواي توقفت أتسمّع الأصوات .. لا شيء ! وصعدت فوق هضبة فلم أر أحداً ، حينئذٍ تنفست الصعداء ، وشعرت بالفرح لأني تخلصت من هؤلاء المزارعين الأشرار .

كنت أسائل نفسي عن مصيري ، فإذا بقيت في المنطقة فسوف يمسكون بي ويعيدونني إلى سيدي ، فما العمل ؟ وأين المفر ؟

تلفت حولي فوجدتني منفرداً تعيساً ، وكدت أذرف الدمع على حالتي حتى لاحظت أني قريب من غابة رائعة .

هتفت : (يا لها من سعادة ، سأجد في هذه الغابة الحشيش والماء والطحالب الندية ، وسأبقى فيها بضعة أيام ثم أمضي إلى غابة سواها أبعد منها ، بعيداً جداً عن مزرعة سيدي ..) .

دخلت الغابة فأكلت من الحشيش الرطب ، وشربت الماء من النبع الصافي ، وحين أقبل الليل رقدت على الطحالب تحت شجرة صنوبر عتيقة ، وغرقت في سبات عميق حتى صباح الغد .

الفصل الثاني

السادة الجدد

عشت شهراً هانئاً في هذه الغابة ، وكنت أحس بالسأم أحياناً ، ولكني أفضل العيش وحيداً على العيش تعيساً ، ولاحظت أن العشب قد نقص وأصبح يابساً ، وتساقطت أوراق الأشجار ، وتجمد الماء وابتلت الأرض .

وفكرّت : " الويل لي ، كيف يكون مصيري ؟ إذا بقيت هنا فسوف أموت برداً وجوعاً وعطشاً ، ولكن أين أمضي ؟ ومن يريدني ؟ " ، وما زلت أفكر حتى تصورت وسيلة أجد بها مأوى لي ، فخرجت من الغابة وتوجهت نحو قرية صغيرة قريبة منها ، ولمحت بيتاً صغيراً منعزلاً نظيف المظهر ، وامرأة جالسة أمام البيت تغزل الصوف ، فأثر في مظهرها الطيب الحزين ، فاقتربت منها ، ووضعت رأسي على كتفها ، فأطلقت المرأة صرخة ونهضت مسرعة واختبأت تحت كرسي ، وقد سيطر عليها الفزع ، فلم أتحرك ونظرت إليها نظرات وديعة مستعطفة .

قالت أخيراً : يا للحيوان المسكين ، لا يبدو أنك شرير ، فإذا لم

يكن لك صاحب ، فسوف يسرني أن تأخذ مكان " كريزون " الهرم الذي مات بالشيخوخة . وأستطيع أن أكسب لقمة عيشي ببيع الخضار في السوق ، ولكن لا بد أن لك صاحباً .

وتنهدت متحسرة ، وقال صوت حنون من داخل المنـــزل :

– مع من تتكلمين يا جدتي ؟

– أتكلم مع حمار جاء ليضع رأسه على كتفي ، وينظر إليّ نظرات وديعة ، ولا يطاوعني قلبي على طرده .

وسرعان ما رأيت على عتبة الدار طفلاً جميلاً في السادسة أو السابعة من العمر ، وكانت ثيابه قديمة ولكنها نظيفة ، ونظر إليّ نظرة فضول وخوف ، وقال :

– هل أستطيع أن ألمسه يا جدتي ؟

– طبعاً يا جورج ، ولكن حذار أن يعضك .

فمد الطفل ذراعه فلم يصل إليّ ، فوقف على رؤوس أصابعه فاستطاع أن يمسد ظهري ، فلم أتحرك خشية أن أخيفه ، ولكني التفت إليه ولحست يده .

جورج :

– جدتي .. جدتي ، هذا الحمار طيب مسكين ، فقد لحس

يدي .

الجدة :

– غريب أن يكون وحيداً ، فأين سيده ؟ امض يا جورج إلى القرية وإلى الفندق حيث يستريح المسافرون ، واسأل عن صاحب هذا الحمار ، لعل صاحبه ملتاع عليه الآن .

جورج :

– وهل آخذ الحمار معي يا جدتي ؟

الجدة :

– لن يتبعك ، فاتركه يذهب حيث يريد .

ومضى جورج يجري وهرولت وراءه ، وحين رآني أتبعه رجع وربت على شعري وقال :

– إذا كنت ستتبعني ، فالأفضل أن أركب على ظهرك .

وركب فوقي وهو يصيح : (حا .. حا .. حا ..) ، وهرولت ففرح جورج .

وصلنا أمام الفندق فوقفت فوراً وهبط جورج ، وبقيت أمام الباب لا أتحرك وكأني مربوط إلى وتد .

قال صاحب الفندق :

– ماذا تريد يا ولدي ؟

– أريد أن أعرف يا مسيو ديفال إن كان هذا الحمار لك ، أو لأحد من أصحابك .

تقدم مسيو ديفال نحو الباب وجعل يتفحصني بانتباه :

– لا ، ليس لي ولا لأحد من معارفي ، فابحث بعيداً .

ركب جورج ظهري وهرولت به ، كنا نطرق الأبواب باباً باباً سائلين عن صاحب الحمار ، ولم يتعرّف عليّ أحد ، فرجعنا إلى بيت الجدة التي ما زالت جالسة تغزل الصوف أمام البيت .

جورج :

– ليس للحمار مالك في القرية يا جدتي ، فماذا نفعل ؟ ولا يريد أن يتركني ، وهو يهرب إذا لمسه أحد سواي .

الجدة :

– مهما يكن الأمر ، فلا يجوز أن يقضي الليلة في العراء ، وقد يصيبه مكروه ، خذه إلى الزريبة وأعطه حزمة تبن وسطل ماء .. سنأخذه غداً إلى السوق لعلنا نجد صاحبه .

جورج :

– وإذا لم نجده يا جدتي ؟

الجدة :

– سنحتفظ به حتى يطلبه أحد ما ، لا يمكن أن نترك هذا الحيوان المسكين يموت من برد الشتاء ، أو يقع بين أيدي الأشرار فيضربونه أو يموت تعباً وبؤساً .

وقدم لي جورج الطعام والماء ، وربّت على رقبتي وهو يمضي ، وسمعته يقول وهو يغلق الباب :

– آه كم تمنيت ألا يكون له صاحب فيبقى عندنا .

من الغد ربط جورج رقبتي برسن بعد أن قدم لي التبن وساقني حتى الباب ، فوضعت الجدة على ظهري بردعة خفيفة وجلست على ظهري ، وناولها جورج سلة خضار وضعتها على ركبتيها ومضينا إلى السوق .

باعت المرأة خضارها ولم يتعرف علي أحد ، ورجعت مع سيدتي الجديدة .

عشت معهم حوالي أربع سنوات وكنت سعيداً فلا أوذي أحداً وأؤدي عملي بإخلاص ، وأحب سيدي الصغير الذي لا يضربني ولا يكلفونني أعمالاً شاقة ، ويقدمون إليّ الطعام الوفير ، وكنت قنوعاً راضياً . في الصيف آكل قشور الفواكه والحشيش الذي تأباه

الخيول والأبقار ، وفي الشتاء آكل التبن وقشور البطاطا والجزر واللفت ، وهذا كفايتنا نحن معشر الحمير ..

ومرت عليَّ أيام أكرهها مثل تلك الأيام التي تؤجرني فيها سيدتي إلى أولاد الجيران . لم تكن غنية ، وحين لا تعمل كان يسرها أن تكسب بعض المال من أبناء القصر القريب ، ولم يكونوا طيبين معي على الدوام .

الفصل الثالث

المخبأ

لم تدم سعادتي زمناً طويلاً إذ كان أبو جورج جندياً ، ورجع إلى الوطن حاملاً معه النقود التي تركها له ضابط وهو يموت ، فاشترى منــزلاً في منطقة (مامير) سكنه مع أمه وولده الصغير ، وباعني لجارة لهم تملك مزرعة صغيرة .

كنت حزيناً لفراق تلك العجوز الطيبة وحفيدها جورج ، ولم أقصر في واجبي تجاهها أبداً .

لم تكن مالكتي الجديدة شريرة ولكنها مولعة بتشغيل كل المحيطين بها ، فربطتني إلى عربة صغيرة تحمل بها التراب والأسمدة والتفاح والحطب ، وأصبحت كسولاً لا رغبة لي في جر العربة أو السير في الطرقات ، ولا أحب خاصة يوم السوق .

لم تكن العربة ثقيلة بحمولتها ، ولا يضربني أحد ، إنما عليّ أن أظل بلا طعام من الصباح حتى العصر ، وحين يشتد الحر أكاد أموت من عطشي ، وكان عليَّ الانتظار حتى تباع الخضار كلها ويقبض سيدي ثمنها ثم يودع أصدقائه .

كنت تلك الأيام سيئ المزاج ، فإما أن أعامَل بلطف أو أنتقم لنفسي ، وهذا ما تخيلته ذات يوم ، وسترى أن الحمير ليست غبية ، وسترى أني غدوت شريراً .

يوم السوق ينهض الجميع في المزرعة أبكر من المعتاد ، فيقطفون الخضار ويمخضون الزبدة ويجمعون البيض ، وكنت أنام في الهواء الطلق صيفاً ، فأراهم وأسمعهم وهم منهمكون في أعمالهم .

وأعلم أنهم سيأتون الساعة العاشرة ويربطونني إلى العربة ويملؤونها ببضائعهم .

ولحت غير بعيد عني حفرة مملوءة بالأشواك وأشجار العليق ، وظننت أنها تصلح مخبأً لي بحيث لا يجدني أحد منهم ، وسمعت صوت أحد الأولاد يناديني وهو يجري في كل الأنحاء ، ثم رجع إلى المزرعة فأخبر سيده باختفائي ، وسمعت صوته ينادي زوجته ويدعو كل من في المزرعة إلى البحث عني .

قال أحدهم :

– لا شك أنه هرب عبر السياج .

فأجاب آخر :

– ولكن السياج سليم لا ثغرة فيه .

وقال السيد :

– ربما نسينا باب المزرعة مفتوحاً ، أسرعوا يا شباب إلى الحقول فلن يكون بعيداً ، أسرعوا وجيئوني به لأننا تأخرنا عن السوق .

وانطلق الجميع إلى الغابات والحقول يجرون وينادون ، وكنت أضحك وأنا في الحفرة ، وأضائل شخصي لئلا يروني ، ورجع المساكين يلهثون من الجري ، وظن السيد أني سرقت ، وربط أحد خيوله إلى العربة ومضى متأخراً عن السوق .

وحين قدّرت أن كلاً منهم مشغول بعمله ، وأنه لا يراني أحد أطللت برأسي فلم أجد أحداً ، فخرجت وانطلقت إلى الناحية الأخرى من الحقول لئلا يعرفوا وجهتي وأنا أنهق بكل قوتي .

ما إن سمع أصحاب المزرعة نهيقي حتى أسرعوا إليّ .

وصاح الراعي :

– ها هو قد عاد .

وقالت السيدة :

– من أين عاد ؟

وقال سائق العربة :

– كيف هرب ؟

ولشدة فرحتي باجتناب السوق جريت إليهم فاستقبلوني أحسن استقبال وربتوا على ظهري ، ووصفوني بأحسن الأوصاف ، وقالوا إني هربت من أيدي اللصوص ، حتى لقد شعرت بالندم لأني لا أستأهل المديح بل ضرب الهراوات ، وتركوني أرعى على راحتي ، فأمضيت نهاراً ممتعاً لولا أن ضميري كان يعذبني لأني رجعت إلى سيدي الفقير .

حين عاد سيدي من السوق وعلم برجوعي كان شديد الفرح ، ومن الغد جال حول السياج وسدّ كل ثغراته .

وقال :

– سيكون ذكياً فعلاً إذا هرب بعد الآن ، فقد أحكمت إغلاق الثغرات كلها بالأشواك بحيث لا تستطيع العبور منه قطة صغيرة .

ومرّ الأسبوع هادئاً ونسوا مغامرتي ، وحين جاء موعد السوق قمت باللعبة نفسها ، فاختبأت في تلك الحفرة لأجتنب التعب والسأم ، وبحثوا عني كما في المرة السابقة ، وزاد عجبهم من اختفائي ، حتى ظنوا أن سارقاً شاطراً قد ساعدني على الهرب .

قال سيدي وهو حزين :

– أظنه ضاع نهائياً هذه المرة ، فلن يستطيع الإفلات من أيدي

اللصوص ، وإذا أفلت فلن يعود لأني أحكمت سدّ الثغرات في السياج .

وتحسر حزناً وأخذ أحد الخيول مكاني أمام العربة .

وفعلت ما فعلته في الأسبوع الماضي فلم أخرج من مخبئي إلا بعد أن ذهب الجميع إلى أعمالهم ، ولكني وجدت من الأفضل ألا أعلن عن رجوعي بالنهيق كما في المرة السابقة .

وحينما رأوني أرعى العشب هانئاً في المروج وعلم سيدي أني رجعت بعد مدة قصيرة من ذهابه ، بدأ يشك في قضية إفلاتي من قبضة اللصوص ، ولم يعد أحد يمدح شجاعتي ووفائي وأحكموا رقابتهم عليّ ، فلم أهتم لهم وقلت لنفسي : " ستكونون أذكياء لو اكتشفتم لعبتي ، ولكني أذكى منكم وأدهى " ، واختبأت مرة ثالثة وأنا سعيد بدهائي ، ولكني ما كدت استلقي في مخبئي حتى سمعت نباح كلب الحراسة وصوت سيدي يقول : " أمسكه ، أمسكه .. انزل إلى الحفرة ، اجذبه من شعره ، سقه إلى هنا .. أحسنت " .

فنـزل الكلب إلى الحفرة وبدأ يعضّ شعري وبطني وأذني ، وكاد يأكلني لولا أني قفزت خارج الحفرة وجريت نحو السياج لأشق لي مخرجاً فيه ، ولكن سيدي رمى أنشوطة حول عنقي وجذبني إليه ،

وانهال عليّ ضرباً بالسوط وكلبه يعضني ..

وقد دفعت ثمن كسلي غالياً ، وحين سكن غضبه توقف عن الضرب وكف كلبه عني ، وربطني إلى العربة وقد ظهر علي الذل والمهانة ، وعلمت فيما بعد أن السيد قد ترك أحد أولاده قرب السياج ليفتح لي الباب إذا هربت من أيدي اللصوص ، ولكنه رآني أخرج من الحفرة فأخبر والده .

ومنذ ذلك اليوم أصبحوا يعاملونني بقسوة ، وأرادوا أن يحجزوني وراء الأبواب ، فكنت أجد الوسيلة لفتحها ، فلا تعجز أسناني عن كسر القفل أو إزاحة الترباس ، فأدخل حيث أشاء وأخرج حيث أريد ، فأغضب هذا سيدي حتى كان ينهال عليّ بالهراوة ، وكتمت حقدي عليه .

والحق أني جلبت الشقاء لنفسي ، وقارنت واقع حالي بأيامي السابقة لدى سيدي ، وبدلاً من أن أتوب عن خطئي ازددت عناداً وحباً للشر .

وذات يوم دخلت خلسة إلى المسكبة ، فأكلت الخس كله ، وفي يوم آخر رميت ابنه على الأرض لأنه شكاني إلى أبيه ، وشربت الحليب الذي أعدّوه لصنع الزبدة ، وكنت أدوس دجاجهم وديوكهم

الهندية ، وأعض خنازيرهم ، وبلغت من سوء الخلق حدّاً دفع السيدة إلى أن تطلب من زوجها أن يبيعني في سوق الدواب الذي سينعقد بعد أسبوعين .

وأصبحت نحيلاً بشع المنظر لكثرة الهراوات وقلة الغذاء ، وأرادوا أن يصلحوا من شأني استعداداً لبيعي ، فمنعوا الأولاد من إيذائي وأعفوني من العمل وزادوا كمية علفي ، فقضيت أسبوعين من أسعد أيامي .

أخذني سيدي إلى السوق وباعني بمائة فرنك ، وقبل أن أفارقه كم تمنيت لو عضضته عضة لا ينساها ، ولكن خشيت أن يسيء الظن بي سيدي الجديد ، فاكتفيت بأن أدرت له ظهري تعبيراً عن احتقاري ..

الفصل الرابع
الميدالية

اشتراني سيد وزوجته لهما بنت مريضة في العاشرة تشكو من السأم ، وكانت تعيش في الريف وحيدة لا أصدقاء لها من سنها ، أما أبوها فمشغول عنها ، وأما أمها فلا تستطيع أن تفعل لها شيئاً .

وأمر الطبيب بأن تتسلى ، فظنت الأم أن النـــزهات على ظهر الحمار قد تسليها وتنسيها وحدتها ، وكان اسم سيدتي الصغيرة (بولين) ، وكانت دائمة الحزن والسقم ولكنها وديعة طيبة جميلة ، فتركب ظهري كل يوم لأمضي بها في الدروب النظيفة والغابات المحيطة بالقرية .

في البداية كانت ترافقنا خادمة أو مربية ، وحين رأوا وداعتي ورقة طبعي وعطفي على سيدتي الصغيرة تركوها تذهب وحدها ، فأطلقت علي اسم (كاديشون) وبقي هذا اسمي ..

وكان أبوها يقول لها :

– اذهبي إلى النـــزهة مع كاديشون ، فلا خطر منه ، وهو شديد الذكاء كأنه إنسان ، ويستطيع أن يعود بك إلى البيت .

كنا نتنـــزه معاً ، وحين تتعب من المشي أقترب من مرتفع في الأرض أو أهبط في حفرة صغيرة لتتمكن من الركوب على ظهري ، وأمضي بها إلى حقول اللوز ، وأتوقف هناك حتى تقطف كفايتها .

كانت تحبني أشد الحب وتعتني بي وتربت على كتفي ، وحين يكون الطقس ممطراً ولا يمكنني الخروج تأتي لتراني في زريبتي ، فتحمل إلي الخبز والعشب الرطب وأوراق الخس والجزر ، وتبقى معي زمناً طويلاً ، وتخاطبني وهي تظن أني لا أفهمها ، وتفضي إليّ بأحزانها ، وتبكي على كتفي أحياناً ، وتقول :

– آه يا كاديشون العزيز ما أنت سوى حمار لا يفهمني ، ولكنك صديقي الوحيد لأنك الوحيد الذي أبوح له بكل ما في قلبي ، ولا أعرف أحداً في مثل سني فأحس بالسأم .

كانت بولين تبكي وهي تعانقني ، وكنت أحبها وأشفق عليها ، وحين تقف بجانبي أحرص ألا أتحرك لئلا أدوسها بحافري .

ذات يوم جاءت تجري نحوي وهي تهتف فرحة :

– كاديشون .. كاديشون ، لقد أعطتني أمي قلادة وفيها خصلة من شعرها ، وأريد أن أضيف إليها خصلة من شعرك أيضاً لأنك صديقي ، وبذلك يكون عندي خصلتان من شعر أعز المخلوقات

عندي .

قصت بولين خصلة شعر من رقبتي وفتحت الميدالية التي تحملها القلادة وخلطت شعري بشعر أمها ، كنت سعيداً بحب بولين لي ، وفخوراً لرؤية شعري داخل الميدالية ، ولكن يجب الإقرار بأنها ليست جميلة المنظر لأن خصلة أمها خشنة بشعة ، ولم تكن بولين تراها كذلك ، فكانت تقلبها بيديها حينما دخلت أمها وسألتها :

– ما هذا الذي بيدك ؟

فقالت :

– إنها الميدالية .

الأم :

– ولماذا جئت بها إلى هنا ؟

بولين :

– حتى أريها لكاديشون .

الأم :

– ما هذا الغباء ؟ الحق أنك أضعت عقلك مع هذا الحمار ، وهل يستطيع أن يفهم معنى خصلة الشعر داخل الميدالية ؟

بولين :

– أؤكد لك يا أمي أنه يفهم جيداً وقد لحس يدي حينما ..

واحمر وجه بولين وسكتت .

الأم :

– حسناً أكملي كلامك ، لماذا لحس لك يدك ؟

بولين (محرجة) :

– ماما أفضل ألا أقول لك وأخاف أن توبخيني .

الأم (بشدة) :

– قولي ! أي حماقة أخرى ارتكبت ؟

بولين :

– ليست حماقة ، على العكس هي ..

الأم :

– لماذا أنت خائفة إذن ؟ أظنك قدمت إلى كاديشون كثيراً من العلف حتى مرض .

بولين :

– لا ،لم أعطه شيئاً بل على العكس .

الأم :

– كيف " على العكس" ؟ بولين بدأت أسأم منك ، أريدك أن

تقولي لي ما فعلت ولماذا غبت عني منذ ساعة .

والحق أن قص شعري وتسويته استغرق وقتاً طويلاً ، فكان عليها أن تفتح غطاء الميدالية وتنـزع زجاجها ثم تضع الشعر في داخلها ثم تعيد إلصاقها .

سكتت بولين لحظة ثم قالت بصوت خافت وهي مترددة : قصصت شعر كاديشون لكي ..

الأم (بنفاد صبر) : لماذا قصصته قولي ؟

بولين (بصوت خافت) : لأضعه داخل الميدالية

الأم (غاضبة) : أي ميدالية ؟

بولين : الميدالية التي أهديتها لي .

الأم (غاضبة) : تلك التي أهديتها لك ومعها خصلة من شعري ؟ وماذا فعلت بشعري ؟

فأجابت بولين بائسة وهي تمد يدها بالميدالية :

– إنها ما تزال داخل الميدالية .

فصرخت الأم منـزعجة : شعري مختلط بشعر الحمار ؟ هذا كثير ، أنت لا تستأهلين هديتي ، وكيف تجعلين أمك في مستوى الحمار ؟

وخطفت الميدالية من يدها ورمتها أرضاً وداستها بقدمها حتى تناثرت ، ثم خرجت وأطبقت الباب وراءها .

ذعرت بولين من غضب أمها المفاجئ فوقفت مذهولة ، ثم انفجرت بالبكاء وتعلقت برقبتي وهي تقول :

– كاديشون ، كاديشون ألا ترى كيف يعاملونني ؟ لا يريدون أن أحبك ولكني سأحبك رغماً عنهم لأنك طيب ولا توبخني أبداً ، ولا تسبب لي الحزن ، وتسعى إلى تسليتي في نزهاتك ، يا للأسف ! إنك لا تفهمني ولا تقدر على مخاطبتي فلدي أشياء كثيرة أقولها لك .

سكتت بولين ثم ارتمت على الأرض وهي تنتحب .

وكنت متأثراً بحزنها ولكني لا أقدر على مواساتها ، أو حتى أعرّفها بأني أفهمها ، وحقدت على هذه الأم التي تقسو في تربية ابنتها ، ولو استطعت لأطلعتها على الحزن الذي تسببه لبولين فيسيء إلى صحتها ، ولكني غير قادر على الكلام ، فنظرت حزيناً إلى بولين .

انقضت ربع ساعة تقريباً على خروج الأم ثم انفتح الباب ودخلت المربية ونادت بولين :

– أمك تناديك ولا تريدك أن تبقي في زريبة كاديشون أو حتى تدخليها .

فهتفت بولين : كاديشون .. المسكين ، أمي لا تريد أن أراك أبداً .

– سترينه ولكن خلال النـــزهات فقط ، لأن مكانك في قاعة الاستقبال لا في زريبة الحمار .

لم تجبها بولين بل عانقتني مرة أخيرة وأحسست بالدموع تسيل على رقبتي ، ثم خرجت ولم تدخل أبداً .

منذ ذلك الحين أصبحت بولين أكثر حزناً واشتد مرضها ، فكانت تسعل ، وازدادت شحوباً ونحافة ، وكان الطقس غير ملائم لنـــزهاتنا التي تناقص عددها ، وحين يأخذونني إلى بولين لتركب ظهري لا تنطق بحرف .

وما إن ننطلق في نزهتنا حتى تقفز إلى الأرض وتروي لي ما يفيض به قلبها من أحزان وهي تحسب أني لا أفهمها .

وعلمت أن أمها لم تسامحها منذ قضية الميدالية ، فازداد حزن بولين وسأمها ، واشتد مرضها يوماً بعد يوم .

الفصل الخامس

الحريق

كان النوم يداعب أجفاني ذات مساء حين أفزعتني صرخات الاستغاثة : " النار .. النار .. " وحاولت التخلص من رسني وقد سيطر عليَّ الرعب ، فبدأت ألوكه بأسناني حتى قطعته ، وكان لهيب الحريق يضيء زريبتي والأصوات تتعالى ، والخادمات يبكين مذعورات ، ثم سمعت صوت تداعي السقوف وانهيار الجدران ، ووصل الدخان حتى زريبتي ولم يفكر أحد بي ، ولم يُفتح لي الباب لأنجو بنفسي ، وارتفعت ألسنة اللهيب حتى كدت أختنق من شدة الحرارة ، وقلت لنفسي : " لقد حان أجلك ، وقدرك أن تحترق حياً فيا لها من ميتة ! "

آه يا بولين ، يا سيدتي العزيزة ، هل نسيت صديقك كاديشون ؟ ما كدت أفكر بهذه الكلمات حتى انفتح الباب بعنف وسمعت صوت بولين الخائف يناديني ، وفرحت بالنجاة فاندفعت إليها .

واقتربنا من الباب ولكنّ دوياً هائلاً حال دون ذلك فقد انهار

مبنى مقابل زريبتي وسدت أنقاضه سبيل النجاة ، وكأنما كتب على سيدتي أن تموت لإنقاذي .

كاد الدخان والغبار والحرارة أن تخنق أنفاسنا ، وتهاوت بولين بجانبي ، فبادرت حينئذ إلى عمل خطير ولكن لا بدّ منه ، فأمسكت ثوب بولين بأسناني واندفعت عبر الأعمدة المحترقة المنتشرة في المكان .

وحالفني الحظ فلم تشتعل النار في ثوبها ، وحين خرجت كانت النار تلتهم كل شيء ، فشعرت باليأس وكدت أترك بولين لمصيرها لولا أني رأيت قبواً مفتوحاً فاندفعت فيه وأنا أعلم أننا سنكون بأمان في هذا القبو العميق .

قرّبتُ بولين من بقعة ماء على الأرض فأصاب جبهتها وصدغيها وسرعان ما أفاقت من غشيتها ، وما أن رأت أنها نجت من الموت حتى اندفعت تصلي وتشكر الله ، ثم جعلت تعانقني تعبيراً عن عرفانها بالجميل .

شربت بولين بعض الماء وأصغت بسمعها ، فإذا بالنار ما تزال تلتهم كل شيء وكل ما تصادفه ، وأصوات الاستغاثة تصلنا ولا نميز أصحابها .

قالت بولين :

– سيظن أبي وأمي أني قد هلكت حين خالفت أمرهما وذهبت لإنقاذ كاديشون ، والآن يجب الانتظار حتى تخمد النار ، وسوف نقضي الليلة في القبو ، وشكراً لك يا كاديشون لأنك أنقذت حياتي .

وسكتت عن الكلام ثم جلست على كرسي ، وداعب النوم أجفانها وقد أسندت رأسها إلى برميل ، أما أنا فشربت ما بقي من ماء وتمددت بقرب الباب وسرعان ما نمت أيضاً .

نهضت في الصباح باكراً ، كانت بولين ما تزال نائمة ، فنهضت بهدوء وواربت الباب فإذا كل شيء قد احترق بعد أن خمدت النار ، فرفعت صوتي بنهيق لطيف استيقظت له بولين ، فنهضتْ إلى الباب تنظر ما حولها وقالت بأسف :

– احترق كل شيء ، لن أرى القصر بعد الآن ، وسوف أموت قبل أن يعاد بناؤه ، فأنا ضعيفة ومريضة ، ومرضي أقوى مما تظنه أمي ، هيا يا كاديشون فلنخرج الآن ، يجب أن أجد أمي وأبي لأطمئنهم على سلامتي فهم يظنونني ميتة . وخطت فوق الحجارة المتساقطة والجدران المتهدمة والدخان ما يزال يتصاعد من الأعمدة الخشبية ، وتبعتُها حتى وصلنا المرج الأخضر ، فركبت ظهري وتوجهنا نحو القرية ، وسرعان ما وجدنا البيت الذي لجأ إليه أهل

بولين .

وما أن رأونا حتى قفزوا فرحاً وانطلقوا إليها ، فحكت لهم عن ذكائي وشجاعتي في إنقاذها .

وبدلاً من أن يتقدموا إليّ بالشكر والعرفان ، فإن الأم رمقتني شزراً ، ولم يكلف الأب نفسه عناء النظر إلي .

قالت الأم :

– كدت تموتين من أجله ، فلو لم تذهبي لتفتحي باب الزريبة لما قضينا ليلة مرعبة أنا وأبوك .

قالت بولين :

– ولكنه هو الذي ..

فقاطعتها الأم :

– اسكتي ولا تحدثيني عن هذا الحيوان الذي أكرهه وكاد يسبب لك الهلاك .

فتنهدت بولين وهي تنظر إليّ متألمة وسكتت .

منذ ذلك اليوم لم أرها أبداً ، فقد ضاعف مرضها رعبُ الحريق وإعياءُ ليلةٍ قضتها في القبو الرطب ، وسيطرت عليها الحمى طول النهار ولم تفارقها .

فرقدتْ في الفراش لا تفارقه ، وزاد في شدة مرضها برد الليلة الماضية ، فأكمل البرد ما كان الحزن والسأم قد بدآه ، وتفاقم مرض صدرها وماتت بعد شهر غير نادمة على الحياة ولا خائفة من الموت .

كانت تردد اسمي على لسانها وهي تهذي من شدة الحمى ، ولا أحد شغل نفسه بي ، فكنت آكل ما أصادفه وأنام في العراء برغم البرد والمطر ، وحين رأيت جنازة سيدتي الحبيبة خارجة من البيت غمرني الحزن الشديد ، وغادرت المنطقة ولم أرجع إليها أبداً .

الفصل السادس

سباق الحمير

قضيت أياماً تعيسة بسبب سوء الطقس ، وكنت أسكن غابة لا أجد فيها سوى ما يدفع عني الموت جوعاً وعطشاً ، وحينما كان البرد يجمد الغدران كنت آكل الثلج وأرعى الأشواك وأنام تحت أشجار الصنوبر .

وقارنت حياتي هذه بتلك الحياة التي كنت أعيشها لدى سيدي جورج أو حتى الفلاح الذي باعني فوجدتها أكثر بؤساً وتعاسة .

وكنت سعيداً حينما لا أتعمد التكاسل وارتكاب الشر والسعي إلى الانتقام ، ولكن لا سبيل إلى الخروج من هذا البؤس لأني مولع بحياة الحرية . كنت أمضي أحياناً إلى نواحي قرية قريبة من الغابة لأتسقّط الأخبار .

ذات يوم من أيام الربيع وكان الجو مشرقاً فوجئت بنشاط متزايد ، فقد بدت على القرية ملامح العيد ، فالناس جماعات جماعات وقد لبسوا أبهى ثيابهم ، وما أذهلني أن جميع حمير المنطقة قد تجمعت هناك ، وكل سيد يمسك رسن حماره وقد غسله ومشّطه ، حتى إن

عدداً منهم قد زينت الزهور رأسه وأحاطت بعنقه ، ولم يكن أي منهم يضع بردعة على ظهره .

وفكرت : هذا غريب فليس اليوم سوق الدواب ، فماذا يفعل هؤلاء الرفاق هنا وهم بأبهى زينة ؟

وتأملت نفسي فإذا أنا قميء الشكل وسخ الأطراف منتفش الشعر ، ولكني أحس بالنشاط والقوة ، وأفضلُ لي أن أكون قبيحاً معافى قوي الجسد من أن أكون مثل رفاقي نظيفاً ، ولكني لا أطيق التعب والحرمان الذي عانيت طول الشتاء .

ودنوت لأعرف معنى هذا التجمع الحميري ، فرآني بعض الأولاد فأخذوا يضحكون وهم يشيرون إلي ، فقال أحدهم :

– انظروا إلى هذا الحمار الجميل الذي وصل الآن ، ما أجمل شعره ؟

وقال آخر :

– إنه أنيق المظهر قوي البدن ، فهل سيشارك في السباق ؟

وقال ثالث :

– إذا كان مصرّاً على هذا فليشترك ولعله ينال الجائزة .

وقد آلمني ضحك الأطفال وسخريتهم ، ولكن علمت أن هناك

سباقاً ولا بد أن أعرف عنه المزيد ، فأصغيت إلى حديثهم .

فسأل أحدهم :

– متى ينطلق السباق ؟

– لا أدري ولكننا ننتظر المحافظ .

وسمعت هذا الحوار بين طفل وامرأة وصلت الآن .

جانو :

– ستنطلق الحمير في المروج قرب الطاحون يا أم ترانشيه .

الأم ترانشيه :

– كم حماراً يتسابق الآن ؟

جانو :

– ستة عشر حماراً

الأم ترانشيه :

– وهل تظن أنك ستربح السباق ؟

جانو :

– طبعاً سيكون لي شرف السبق والحصول على ساعة فضية .

الأم ترانشيه :

– كم كنت أتمنى لو كان عندي حمار لأربح هذه الساعة .

جانو :

– لن يربح الجائزة حمار سوى حماري .

الأم ترانشيه :

لو كان معي المال لاشتريت حماراً ودربته ودخلت السباق به : ولكني فقيرة لا أملك ثمن حمار .

لقد أعجبتني تلك المرأة وكانت تبدو طيبة مرحة .

وخطر لي أن أجعلها تربح الساعة الفضية فأنا معتاد على الركض كل يوم عبر الغابات ، وأقطع مسافات طويلة لأتغلب على البرد ، واشتهرت بسرعة عدوي وكأني حصان .

قلت لنفسي : " فأنا لا أخسر شيئاً ، وإذا ربحت تكون المرأة قد ربحت ساعة فضية تتمناها " .

أخذت مكاني بين صف الحمير ورفعت رأسي عالياً وبدأت أنهق ، فصرخ أندريه :

– ما أجمل هذه الموسيقا ! ابتعد من هنا فأنت ليس لك سيد وشعرك أشعث ، ولا يمكنك دخول السباق .

سكتُ ولكني لم أغادر مكاني ، فضحك قوم واستاء آخرون ، وكاد ينشب الشجار بينهم حين تدخلت الأم ترانشيه وهتفت :

- إذا لم يكن له صاحب فأنا مالكته الآن ، وأنا أعرفه ، إنه كاديشون حمار بولين المسكينة ، لقد طردوه ولم يجد أحداً يرعاه ، وأظنه أمضى الشتاء في الغابة ، لأن أحداً لم يره بعد موتها ، سآخذه الآن وسوف يجري لحسابي .

هتف الجميع :

- آه .. إنه كاديشون ، لقد سمعنا عن هذا الحمار الرائع .

جانو :

إذا أردت أن يجري لحسابك فيجب عليك أن تدفعي إلى المحافظ عشرة فرنكات .

الأم ترانشيه :

- إليكم المبلغ يا أطفال ، وإياكم أن تطلبوا غيره لأنه ليس معي سواه .

جانو :

- إذا ربحت فسوف تأخذين أكثر من مائة فرنك .

دنوت من الأم ترانشيه فنهقت وقفزت في الهواء ، ثم ركلت عدة ركلات أفزعت الأولاد وأدخلت الخشية في نفوسهم من أن أربح الجائزة ، قال أندريه :

- اسمع يا جانو لقد أخطأت إذ سمحت للأم ترانشيه بدخول السباق ، فها هي الآن تسابقنا بكاديشون الذي يبدو عليه النشاط ، ونخاف أن يسرق منا المبلغ المالي .

جانو :

- يا لك من أبله ! ألا ترى منظر هذا الحمار ؟ لا تخف فلن يمضي بعيداً .

- سأعرض عليه شيئاً من التبن إذا انسحب من السباق .

- والعشرة فرنكات التي دفعتها الأم ترانشيه ؟

- إذا انسحب الحمار دفعناها لها .

- ولا تنس أن كاديشون ليس ملكها ، اذهب وأحضر بعض العلف وحثه على الانسحاب دون أن تراك الأم ترانشيه .

لقد سمعت كل كلامهم وعرفت هدفهم ، وعندما جاء أندريه ومعه مخلاة من التبن ابتعدت عنه والتصقت بالأم ترانشيه التي كانت تحادث صديقاتها ، فأمسك جانو أذني وأدار رأسي وهو يظن أني لم أر التبن ، فلم أتحرك على الرغم من جوعي واشتهائي هذا التبن اللذيذ ..

وبدأ جانو يجرّني وأندريه يدفعني وأنا أنهق بأعلى صوتي ،

فالتفتت الأم ترانشيه ورأت حركاهما فقالت :

– ليس شيئاً حسناً ما تفعلونه يا أولاد ، فقد دفعت المبلغ المطلوب من أجل هذا السباق ، فلا يحق لكم أن تأخذوا مني كاديشون ، ويبدو لي أنكم خائفون مُنه .

اندريه :

– أنخاف من حمار كهذا ؟ لا ، لسنا خائفين .

الأم ترانشيه :

– ولماذا تجرونه ؟

جانو :

– لنعطيه شيئاً من التبن .

الأم ترانشيه :

– إذن اختلف الأمر ، أفرغوه على الأرض ليأكل براحته .

أحس أندريه وجانو بالخجل ، ولكن لم يقدروا على مخالفة أمرها ، وضحك منهما أصحابهما ، وكانت الأم ترانشيه تفرك يديها فرحاً وأنا آكل التبن بشراهة والتذاذ ، وأحس بأني أزداد قوة ونشاطاً .

وقد أعجبت بذكاء الأم ترانشيه وبدأت أتشوق لانطلاق

السباق ، وأخيراً سمعت ضوضاء ، فقد أمر المحافظ بأن تأخذ الحمير مواقعها ، فاصطفت على خط واحد وتظاهرتُ بالتواضع ، فوقفت آخر واحد ، وتساءل الجمهور عن هذا الحمار الذي يقف وحيداً لا صاحب له .

فصاح أندريه :

– هذا ليس له صاحب .

وصرخت الأم ترانشيه :

– إنه حماري .

المحافظ :

– يجب أن تدفعي رسم الاشتراك يا أم ترانشيه .

الأم ترانشيه :

– لقد دفعته يا سيدي المحافظ .

وأصدر المحافظ أمره بأن تسجل الأم ترانشيه في السباق ، وقال الكاتب إنها دفعت رسم الاشتراك واسمها مسجل في السباق .

هتف المحافظ :

– استعداد .. واحد ، اثنان ، ثلاثة ، انطلاق !..

أفلت طفل رسن حماره وضربه ضربة قوية بسوطه ، وانتظرت

دوري بهدوء وقد سبقني الجميع ، ولكن ! لم يجروا مائة خطوة حتى لحقت بهم وصرت على رأس المجموعة أسبقها وأنا مرتاح تماماً .

كان الفتيان يلوحون بسياطهم ويحثون حميرهم ، وكنت ألتفت من حين إلى آخر فأرى الرعب على الوجوه ، أضحك من الجهود التي ستذهب هباء ، وكان رفاقي غاضبين لأني سبقتهم وأنا القميء المظهر فيضاعفون جهودهم للحاق بي .

وكنت أسمع ورائي نهيقاً وصراخاً وركلات وعضات ، وقد استطاع حمار جانو أن يتجاوزني مرتين ، وكنت أستطيع استخدام وسائله نفسها التي استخدمها لتجاوز رفاقه ، ولكني أبيتُ اللجوء إليها ، فبذلت جهداً عظيماً لتجاوزه ، فأمسك بذيلي بين أسنانه وكدت أسقط أرضاً من الألم ، ولكن شرف النصر زوّدني بالشجاعة ، فجذبت ذيلي وبقيتْ قطعة منه بين أسنانه ، وكأنما نبت لي جناحان لرغبتي في الانتقام ، فجريت بسرعة شديدة وأنهيت السباق أولاً ، وورائي بمسافة طويلة بقية المتنافسين ، كنت منهكاً أتنفس بصعوبة ولكني أحس بالسعادة ونشوة الانتصار .

وسمعت آلاف الأيدي تصفق من جانبي المضمار ، فرفعت رأسي مفتخراً ورجعت مهرولاً إلى منصة المحافظ للحصول على الجائزة .

جرت الأم ترانشيه نحوي وعانقتني ووعدتني بكمية كبيرة من التبن ، ومدت يدها لتناول الجائزة ، وهي الساعة وكيس الدراهم التي وعد بها المحافظ .

حينها جرى أندريه وجانو وهما يصرخان :

– توقف يا سيدي المحافظ توقف هذا ليس عدلاً ، فلا أحد يعرف هذا الحمار ، وليس حمار الأم ترانشيه ، ولا يمكن عدّه بين المتسابقين لأن حماري قد وصل الأول مع حمار جانو ، فالساعة والكيس من نصيبنا .

– ألم تدفع الأم ترانشيه رسم الاشتراك في السباق ؟

– نعم سيدي المحافظ ولكن ..

– وهل اعترض أحد حينما دفعت الرسم ؟

– لا يا سيدي المحافظ .

– وهل اعترضت لحظة الانطلاق ؟

– لا يا سيدي المحافظ .

– وإذن فحمار الأم ترانشيه قد فاز بالسباق وربح الساعة وكيس الدراهم .

– سيدي المحافظ أدعُ المجلس البلدي إلى الاجتماع ومناقشة

الموضوع ، فليس لك الحق بالحكم وحدك .

حين رأيت تردد المحافظ جذبت بفمي الساعة والكيس ووضعتها في يد الأم ترانشيه التي كانت ترتعد خائفة تنتظر قرار المحافظ ، فضحك الجمهور لهذه الحركة الذكية وتعالت عاصفة من التصفيق .

قال المحافظ : لقد حسم المنتصر الأمر لصالح الأم ترانشيه ، وأطلب من أعضاء المجلس أن يناقشوا الحق في التصويت للحمار ، ثم نظر إلى جانو وأندريه نظرة ذات معنى وقال : لا أظن أن " الأحمر " فينا هو حمار الأم ترانشيه .

وتعالت الأصوات : أحسنت ، أحسنت يا سيدي المحافظ .

وكان الجميع يضحكون ما عدا أندريه وجانو اللذين كانا يهددان بأيديهما .

ولا تسل عن فرحتي ، فقد بلغت بي الكبرياء أن أحسست بالإهانة من طرف المحافظ ، لأنه وصف خصومي بالحمير ، لقد كنت شجاعاً متواضعاً صبوراً ذكياً ، فهل هذا جزائي ؟

حتى الأم ترانشيه التي ربحت بفضلي ساعة فضية ومائة قطعة نقدية نسيت المحسن إليها ، وأخلفت وعدها بمكيال التبن ، ومضت مع الجمهور دون أن أنال شيئاً من الجائزة التي ربحتُها .

الفصل السابع

السادة الطيبون

بقيت وحيداً في البرية حزيناً ، ذيلي يؤلمني وأتساءل عما إذا كان الحمير خيراً من سادتهم ، حينئذ أحسست يداً لطيفة تربت عليّ ، وسمعت صوتاً ناعماً يقول لي :

– يا للحمار المسكين ، لقد أساؤوا إليك ! تعال أيها الحيوان المسكين ، تعال لدى جدتي سوف تطعمك وتعالجك أحسن مما يفعل سادتك الأشرار ، يا للحمار المسكين ما أنحلك ؟

التفت فرأيت طفلاً جميلاً لا يتجاوز السنوات الخمس ومعه أخته وعمرها ثلاث سنوات تجري مع مربيتها .

جين :

– ماذا قلت يا جاك لهذا الحيوان البائس ؟

جاك :

– طلبت منه أن يأتيَ ليسكن لدى الجدة ، فهو وحيد بائس .

جين :

– نعم يا جاك ، خذه إليها وانتظر حتى أركب ظهره ، ساعديني

على الركوب .

أركبت المربية الطفلة الصغيرة على ظهري ، وأراد جاك أن يجرّني ولكن لم يكن لي رسن فقال للمربية :

– انتظري سأربط منديلي إلى رقبته .

وحاول جاك ، ولكن منديله كان صغيراً لا يحيط برقبتي ، فأعطته المربية منديلها وكان صغيراً أيضاً ، فقال جاك وهو يكاد يبكي :

– ماذا نفعل ؟

المربية :

– لنذهب إلى القرية نبحث عن رسن أو حبل ، تعالي يا صغيرتيَ انزلي عن ظهر الحمار .

جين (وهي تتشبث بي) :

– لا .. لا .. لا أريد النــزول ، أريد أن أبقى فوق الحمار ، أريد أن يمشي بي حتى البيت .

المربية :

– ولكن ليس لدينا رسن نجره به ، وهو لا يتحرك كأنه تمثال من حجر .

جاك :

– انتظري ، أولاً أعرف أن اسمه كاديشون فالأم ترانشيه قالت لي هذا ، سوف أمسده وأعانقه حتى يتبعني .

اقترب جاك من أذني وقال لي بهمس وهو يمسدني :

– امش يا كاديشون الصغير ، امش أرجوك !

وقد أثرت فيّ ثقة هذا الطفل الصغير ،ولاحظت أنه بدلاً من أن يبحث عن عصا يضربني بها فقد فكر في الوسائل الودية – وسائل الصداقة – وما كاد ينهي جملته حتى سارعت في المشي .

وهتف جاك وقد احمرّ من السعادة .

– أرأيت يا مربيتي ، إنه يفهمني وهو يحبني .

– وهل يفهم الحمار شيئاً ؟ لقد مشى لأنه سئم من الوقوف .

– ولكنك ترين أنه يتبعني .

– لأنه شمّ الخبز الذي في جيبك .

– هل تعتقدين أنه جائع ؟

– ربما ، ألا ترى إلى جسمه النحيل !

– صحيح يا كاديشون البائس ، لم أفكر في إعطائه قطعة خبز .

وجذب من جيبه قطعة الخبز التي أعطتها المربية له وقدمها لي ،

وقد شعرت بالإهانة من طريقة المربية في التفكير ، وأردت أن أبرهن لها بأني لم أتبع جاك طمعاً في خبزه ، وإنما تبعته وحملت جين كرماً مني ، فرفضت الخبز الذي قدّمه لي جاك ولحست يده .

جاك :

– لقد قبل يدي ولا يريد الخبز ، يا كاديشون العزيز إني أحبك ، أرأيت ! إنه يتبعني لأنه يحبني لا طمعاً في خبزي .

المربية :

– أتظن أن هذا الحمار لا مثيل له ، ورأيي أن كل الحمير عنيدة وشريرة ولا أحبها .

جاك :

– آه يا مربيتي ، كاديشون المسكين ليس شريراً ، إنه لطيف معي .

المربية :

– سنرى إن كان الود سيدوم .

فخاطبني جاك :

– ألن تدوم على حالك من الوفاء لي ولأختي جين ؟

فالتفت ونظرت بحنان إليه ، ففهم رغم صغر سنه ، ورميت

المربية بنظرة غضب فهمتها هي أيضاً لأنها قالت في الحال :

– إنه حاد النظرات شرير ، نظر إليّ كأنما يريد افتراسي .

فقال جاك :

– أوه ، كيف تقولين هذا ؟ فقد نظر إلي نظرة حانية كأنما أراد أن يعانقني .

وكان الاثنان على صواب ولم أكن على خطأ ، وقد عاهدت نفسي أن أكون طيباً مع جاك وجين وكل من يكون طيباً معي من أفراد العائلة ، وأكون شريراً مع من يهينني مثل هذه المربية .

وكانت الرغبة في الانتقام سبباً في أحزاني بعدئذٍ .

وصلنا قصر الجدة وتركني جاك وجين على الباب ، فانتظرت هادئاً كحمار مؤدب لا أتحرك ولا أذوق العشب الذي يحف بجانبي الطريق .

وبعد دقيقتين عاد جاك تتبعه جدته فقال وهو يشبك يديه :

– تعالي يا جدتي ، انظري ما ألطفه ! إنه يحبني ولا تصدقي ما تقوله المربية .

فقالت الجدة ضاحكة :

– سنرى هذا الحمار الشهير .

فاقتربت مني فلمستني ومسدت شعري ، وأمسكت بأذني ووضعت يدها في فمي ، فلم أحاول عضها أو الابتعاد عنها .

الجدة :

– يبدو عليه أنه حمار وديع ، فلماذا تقولين يا إيميلي إنه شرير ؟

جاك :

– أرأيت يا جدتي إنه طيب ويجب الاحتفاظ به .

الجدة :

– أظنه طيباً جداً ، ولكن كيف نحتفظ به وهو ليس ملكنا ؟ يجب أن نعيده إلى صاحبه .

جاك :

– ليس له صاحب يا جدتي .

ورددت وراءه جين :

– ليس له صاحب .

الجدة :

– كيف لا يكون له صاحب ؟ مستحيل !

جاك :

– بلى يا جدتي فالأم ترانشيه قالت لي هذا .

الجدة :

– وإذن ، كيف ربح لها الجائزة في السباق ، لا بد أن يكون لها وقد أعارته لبعض الجيران .

جاك :

– لا يا جدتي ، لقد جاء وحده وأراد أن يدخل في السباق مع الآخرين والأم ترانشيه دفعت لكي تربح وليس له صاحب ، إنه كاديشون حمار بولين المسكينة التي توفيت ، وقد طرده أهلها فقضى الشتاء كله في الغابة .

الجدة :

– كاديشون ، كاديشون الشهير الذي أنقذ سيدته الصغيرة من الحريق ؟ آه .. إني فرحة بمعرفته ، إنه حمار رائع حقاً .

ودارت حولي تتأملني ، وقد كنت فخوراً لأن شهرتي قد ذاعت بين الناس ، فرفعت رأسي وفتحت منخاريَّ على سعتهما وهززت شعري ، ثم قالت الجدة بصوت جاد وبلهجة آسفة :

– ما أنحف هذا الحيوان البائس ! لم يكافأ على إخلاصه . لنحتفظ به يا ولدي ، لنحتفظ به لأنه شريد ، طرده الذين يتوجب عليهم رعايته والعطف عليه ، ناد (بولاند) ، سأضعه في الزريبة

وأهيئ له فراشاً وثيراً .

وجرى جاك يبحث عن بولاند ثم عاد به مسرعاً .

الجدة :

– بولاند هذا حمار جاء به الأطفال ، ضعه في الزريبة ، اسقه وأطعمه .

بولاند :

– هل سنعيده إلى صاحبه بعدئذٍ ؟

الجدة :

– لا ، ليس له صاحب ، ويبدو أنه كاديشون الشهير الذي طُرد بعد وفاة سيدته الصغيرة ، لقد جاء إلى القرية ووجده حفيداي هائماً في البرية وسوف نحتفظ به .

بولاند :

– أحسنت يا سيدتي إذ احتفظت به ، فلا مثيل لهذا الحمار في المنطقة كلها ، وقد حكوا لي عنه أشياء مذهلة حقاً ، ويبدو أنه يسمع ويفهم ما يقال ، وسترين يا سيدتي حالاً الدليل على كلامي .. تعال يا كاديشون لتتناول نصيبك من التبن .

فالتفت في الحال وتبعت بولاند إلى حيث يمضي .

قالت الجدة :

– مدهش ، إنه يفهم فعلاً .

ودخلتُ إلى المنـــزل وأراد جين وجاك أن يرافقاني إلى الزريبة ، وكان معي فيها بعض الرفاق حصانان وحمار ، وساعد جاك بولاند على ترتيب مرقدي وذهب يجلب مخلاة من التبن .

قال جاك :

– املأها أكثر فهو بحاجة إليها فقد جرى كثيراً .

بولاند :

– ولكنك إذا أكثرت له العلف فسوف يصبح كثير النشاط ، ولن تتمكن من ركوبه لا أنت ولا جين .

جاك :

– أوه ، إنه حمار طيب ولا يمانع من ركوبه في كل الأحوال .

وأعطوني مكيالاً كبيراً من التبن ، ووضعوا بجانبي سطلاً مملوءاً بالماء ، فشربته إلى نصفه من عطشي ، وبدأت أتلذذ بمضغ العلف وأنا فرح بلقاء جاك الطيب ، وعدت إلى التفكير في سوء تصرف الأم ترانشيه ، ثم تمددت على الحشيش اليابس واستغرقت في نوم عميق .

الفصل الثامن

اللصوص

اجتمع عدد غفير من الأولاد للتسابق على الحمير داخل الغابة ، وتوافد الحمير من كل القرى المجاورة ، وكان فيهم معظم من اشترك في السباق الماضي .

رمقني حمار جانو بنظرة حاقدة ، فرددت عليه بنظرات السخرية .

وكان لدى الجدة كل أحفادها : كاميل ، مادلين ، اليزابيت ، هنرييت ، بيير ، هنري ، لوي ، جاك ، جين ، وقد قَدِمتْ أمهات هؤلاء راكبات حميراً على حين يتبعهن الآباء مشياً على الأقدام ، يحملون العصي لحث الحمير الكسالى على السير . وقبل الانطلاق اختلفوا حول من يأخذ أفضل حمار ، فالجميع يريدونني ولا يريدون التخلي عني ، حتى اتفقوا على اللجوء إلى القرعة ، وكنت من نصيب (لوي) الصغير ابن عم جاك ، وهو طفل رائع ، وكم تمنيت لو كنت من نصيب جين .

رأيت جاك يكفكف دموعه وكانت عيناه تفيضان بالدمع كلما

نظر إلي ، فأثر في نفسي ولكني لا أستطيع تسليته فكان عليه الاستسلام مثلي .

وانتهى به الحال إلى ركوب حماره وهو يقول لابن عمه لوي :

– ساركض بجانبك ولا تسرع بكاديشون كثيراً حتى أستطيع اللحاق بك .

– ولماذا تتخلف عني ؟ لماذا لا تهرول مثلي ؟

– لأن كاديشون أسرع من كل حمير المنطقة .

– وكيف عرفت هذا ؟

– رأيته في السباق الذي ربح فيه الجائزة ، جائزة عيد القرية ، وقد سبقهم كاديشون جميعاً .

وعد (لوي) ابن عمه بألا يسرع كثيراً ، وانطلقا كلاهما مسرعين ، ولم يكن ذلك الحمار سيئاً ولكني لم أجد عناء في تجاوزه ، وتبعنا الآخرون قدر استطاعتهم ، ووصلنا هكذا إلى غابة تحوي بعض الآثار القديمة ، ويقال إنها مسكونة ، فلا يذهب الناس إليها إلا مجتمعين ، وقد تسمع منها ضوضاء غريبة صادرة من تحت الأنقاض وتنهدات وصرخات وقعقعة سلاسل ، وإن كثيراً ممن سخروا من هذه الإشاعة وزاروا الآثار منفردين اختفوا ولم يعثر لهم على أثر .

وصل الجميع ونزلوا عن الحمير وتركوها ترعى ، فأمسك الأهل بأيدي أبنائهم لئلا يبتعدوا عنهم ، وانفصلت كذلك عن رفاقي لأتجنب حرارة الشمس ، فجلست تحت قنطرة على مرتفع من الأرض بعيداً عن الآثار ، وبعد ربع ساعة تقريباً سمعت ضجة قرب القنطرة ، فاختبأت خلف أحد الجدران بحيث أرى ولا يراني أحد ، فكانت الضجة تزداد ارتفاعاً وكأنها صادرة من تحت الأرض .

سرعان ما رأيت رأس رجل يطل من بين الدغلة وهو يتلفت حذراً ثم قال :

– لا يوجد أحد ، تستطيعون الخروج ، وليأخذ كل منكم حماراً ولنهرب بهدوء .

فظهر حوالي عشرة رجال ، فخاطبهم بصوت خفيض :

– إذا هربت الحمير فلا تجروا وراءها ، أسرعوا ولا تصدروا أصواتاً .

وأسرع الرجال في هذه المنطقة من الغابة الكثيفة وهم يتلفتون حذرين ، وكانت الحمير ترعى في أطراف الغابة ، وبإشارة من زعيمهم أمسك كل منهم برسن حمار واختفى به في الدغلة ، وبدلاً من أن تقاوم هذه الحمير أو ترفس أو تنهق لتنذر أصحابها فقد تركتهم

يسوقونها وكأنها مخلوقات أغبى من الخرفان ، وبعد خمس دقائق وصل اللصوص إلى الدغلة القريبة من القنطرة ، فدفعوا رفاقي واحداً بعد الآخر واختفوا فيها ، وسمعت وقع خطاهم تحت الأرض ثم ساد السكون وفكرت : هذا هو تفسير الضوضاء التي تخيف المنطقة ، إنها عصابة لصوص اختفت في أقبية الآثار ، فيجب القبض عليهم ، ولكن كيف ؟

وبقيت مختفياً في مكاني حيث أرى الآثار كلها والبلدة من حولها ، وخرجت حين سمعت صوت الأطفال يبحثون عن حميرهم ، فجريت أمنعهم من الاقتراب من هذه القنطرة .

هتف لوي :

– هذا كاديشون ، أين بقية الحمير ؟

قال أبو لوي :

– لعلها قريبة من هنا ، فلنبحث عنها .

قال أبو جاك :

– لنبحث قرب الخندق هناك وراء القنطرة ، فالعشب مرتفع ولعلها ذهبت ترعاه .

وارتجفت لمجرد التفكير بالخطر المحيط بهم ، وانطلقت إلى جانب

القنطرة لأمنعهم من العبور ، وحاولوا إزاحتي من طريقهم ، ولكني قاومتهم بإصرار وقطعت عليهم كيفما اتجهوا حتى قال أبو لوي :

– إني أرى إصرار كاديشون ذا مغزى ، فكم سمعت عن ذكاء الحيوان ، فلنعد أدراجنا ولا أظن أن كل الحمير مضت في اتجاه واحد .

فأجابه أبو جاك :

– أظنك على حق ، فإن العشب متكسر من ناحية القنطرة وكأنما داسته أقدام كثيرة ، وأخشى أن تكون حميرنا قد سرقت .

ورجعوا إلى النسوة اللواتي كن يمنعن أولادهن من الابتعاد ، فتبعتهم وأنا شديد الفرح لأني جنبتهم خطراً عظيماً ، ثم رأيتهم يتهامسون ثم نادوني .

وسألت أم لوي :

– ماذا سنفعل ؟ حمار واحد لا يكفي لحمل هؤلاء الصغار .

وقالت أم جاك :

– ليركب الأصغر سناً ، والأكبر سناً يمشون وراءهم .

ونادتني أم هنريت :

– تعال يا كاديشون لنرى كم ولداً تستطيع أن تحمل .

ولم يكن الصغار ثقيلي الوزن ، فحملتهم دون أن أشكو أو يبدو علي التعب .

وسار بجانبي الآباء وهم يمسكون بصغارهم لئلا يسقطوا ، وورائي الأطفال الأكبر سناً ومعهم أمهاتهم .

قالت هنرييت :

– ماما أين بقية الحمير ؟

الأم :

– يظن بابا أنها سرقت ، ولا فائدة من البحث عنها .

هنري :

– سرقت ؟ ومن سرقها ؟ لم أر أحداً حولها .

الأم :

– ولكننا رأينا آثار أقدام اللصوص .

بيير :

– إذن يجب البحث عن اللصوص والقبض عليهم .

الأم :

– إن سرقة ثلاثة عشر حماراً معناها أنه هناك عصابة من اللصوص المسلحين ، وقد يؤذون أو يقتلون الرجال .

بيير :

– وما هو سلاحهم ؟

– قد يكونون مسلحين بالهراوات أو السكاكين أو المسدسات .

كاميل :

– أوه هذا خطر أكيد ، ونحمد الله أننا غادرنا المكان قبل أن يتعرضوا لنا .

الأم :

– يجب أن نسرع إلى البيت وسوف يذهب الرجال إلى المدينة .

بيير :

– وماذا يفعلون في المدينة ؟

الأم :

– سيبلغون الشرطة ويحاولون البحث عن الحمير .

وسرعان ما وصلنا إلى البيت ولحق بنا الجميع سيراً على الأقدام ، وكنت أحمل أربعة أطفال على ظهري .

وحين حكوا لأهل القرية قصة اختفاء الحمير ، وكيف حاولت منعهم من الاقتراب من القنطرة تداولوا القضية فيما بينهم وقدم كل منهم اقتراحه .

فزعم بعضهم أن الحمير قد ابتلعتها الأرض أو خطفتها العفاريت ، وادعى آخرون أن بعض الأشباح تسكن الآثار ولا تترك أحداً يقترب منها ، وقال آخرون إن تحت الآثار مقبرة مقدسة يحترق كل من يدوس فوقها ، وإن الأرواح تحلّق فوقها ليلاً .

ولم يخطر ببال أحد أن اللصوص يختبئون في أقبية الآثار .

وروى الآباء للجدات هذه الحكاية ، وكيف سُرقت الحمير ، فربطوا الخيول إلى العربات ومضوا إلى القرية المجاورة للاستنجاد بالشرطة ، وعادوا بعد ساعتين ومعهم ضابط شرطة وستة من أعوانه .

تداول الناس كيف منعتهم من الاقتراب من القنطرة ، وأعجب الجميع بشدة ذكائي ، وكانوا مسلحين بالمسدسات والبنادق استعداداً للبحث عن الحمير المسروقة ، ولكنهم قبلوا دعوة الجدة إلى العشاء وجلسوا جميعهم إلى المائدة رجالاً ونساءً ومعهم رجال الشرطة .

الفصل التاسع
الأقبية

سرعان ما تناول رجال الشرطة عشاءهم ، فقد كانوا مستعجلين للقيام بأبحاثهم قبل حلول الظلام ، واستأذنوا الجدة في أخذي معهم ، وقال الضابط :

– سيكون مفيداً لنا في البحث ، فليس كاديشون حماراً عادياً ، وقد أنجز عملاً هائلاً يدل على فطنته وحدة ذكائه .

فأجابت الجدة :

– خذوه معكم إذا كان يعينكم في أبحاثكم ، ولكن لا تتعبوه كثيراً ، فقد نقل هؤلاء الأطفال وحده .

قال الضابط :

– لا تخافي عليه ، فسوف نعتني به لأنه أذكى حمار عرفته .

قدموا لي عشائي : وجبة دسمة من التبن والخس والجزر وسواها من الخضار ، وشربت حتى ارتويت وأصبحت جاهزاً للانطلاق .

كنت على رأس الدورية التي مضت للبحث عن الحمير المسروقة ، فكيف ظنك بهذه الدورية التي يرأسها حمار ؟ ولم يحسوا

بالمهانة لأنهم قوم طيبون ، وقد يحسب بعض الناس أن الشرطة رجال قساة ، والعكس صحيح إذ لم أر في حياتي رجالاً أفضل أو أكرم منهم ، وقد بذلوا جهدهم أثناء الطريق للعناية بي ، فكانوا يبطئون مشي خيولهم حين تلوح علي علامات الإعياء ، ويتركونني أشرب من كل جدول ماء نمرّ به .

شارفت الشمس على المغيب حين وصلنا إلى الآثار ، وأصدر الضابط أمراً بأن يتبعوا خطواتي وأن يظلوا مجتمعين ، ولكن خيولهم كانت تعيقهم فتركوها في قرية قريبة من الغابة ، وأرشدتهم دون تردد إلى المدخل قرب القنطرة بجانب الدغلة حيث رأيت اللصوص يدخلون ، فلم يتعرفوا على المدخل ، فدرت حول القنطرة فساروا ورائي ثم اختفوا وراء الأشجار .

وقفت أمام باب تحجبه الأشجار ورفعت صوتي بالنهيق فتجاوبت أصداء النهيق من تحت الأرض ، وكأن رفاقي يطلبون النجدة ، وحاولت مرة ثانية فلم أسمع أصواتهم ، فعرفت أن اللصوص قد ربطوا الحجارة الثقيلة بأذنابهم ليمنعوهم من النهيق .

وهذا أمر معروف لدى الجميع ، فلكي ينهق الحمار لا بدّ له أن يرفع ذيله ، فإذا كان ذيله مربوطاً بحجر ثقيل عجز عن النهيق .

وقفت على بعد خطوتين من المدخل ، فأطل رجل برأسه وهو يقول :

– هذا هو الملعون الذي لم نمسكه مع أصحابه ، تعال إلى هنا واجتمع برفاقك .

فركضت مبتعداً فلحق بي ودرت حول الحائط حتى أوصلته إلى المكان الذي يختبئ الشرطة فيه ، وسرعان ما انقضوا عليه وكمموا فمه وربطوا يديه وقدميه وطرحوه أرضاً .

رجعت إلى المدخل فرفعت صوتي بالنهيق لعل أحداً منهم يخرج ليعرف مصير صاحبه ، فخرج أحدهم وتلفت بحذر مثلما فعل الأول فتطاردتُ له ودرت حول الحائط فتبعني ، فأمسك به الشرطة وربطوه كما ربطوا الأول ، وما زلت أكرر هذه العملية حتى أمسك الشرطة بستة لصوص .

وقفت أمام المدخل ورفعت صوتي بالنهيق فلم يخرج أحد ، فعلمت أن اللصوص قد أدركوا الحيلة ولم يعد يخرج أحد منهم ليعرف مصير صاحبه ، وكان الظلام قد خيّم على المكان ، فأرسل الشرطة أحدهم ليطلب الدعم لمواجهة المتحصنين في الأقبية ويجلب عربة لنقل اللصوص الستة المقبوض عليهم .

أصدر الضابط أمره إلى أعوانه فانقسموا فريقين لمراقبة مدخل الأقبية ومخرجها ، إلى هنا انتهت مهمتي ، فكانوا يربتون على رقبتي ويمدحون ذكائي .

قال أحد الشرطة :

– لو لم يكن حماراً لاستحق وساماً .

وقال آخر :

– ألا ترى هذا الوسام فوق ظهره .

وكان يعني الندوب التي تركتها البردعة على ظهري .

فقال صاحبه غاضباً :

– هذا وسام يعتز به كل حمار لأنه يعمل بصبر .

صاح بهم الضابط :

– اسكتوا .. وأنت يا كاديشون أرهف أذنيك .

وسمعنا صوت تكسر أغصان وصرخات مكتومة لم نعرف سببها ، وبعد قليل تصاعد دخان كثيف من عدة منافذ تحت الأرض ثم ارتفعت ألسنة النيران ثم امتد لهيبها إلى كل ما حولها .

قال الضابط :

– لقد أشعلوا النار لكي يهربوا من المداخل .

وقال أحد رجال الشرطة :

– يجب الإسراع في إخمادها يا سيدي .

فأجاب الضابط :

– احرسوا المنافذ كلها ، وإذا ظهر أحد اللصوص فأطلقوا النار .

لقد أدرك الضابط خطتهم إذ عرفوا أنهم محاصرون ، فأشعلوا النار ليشغلوا الشرطة بإخمادها فيهربون بعد أن يخلصوا رفاقهم الأسرى .

بعد قليل ظهر اللصوص الستة الباقون وزعيمهم ، وكان ثلاثة من الشرطة على هذا المدخل فأطلقوا رصاص بنادقهم ورد عليهم اللصوص بإطلاق النار فسقط اثنان منهم على الأرض وكسرت يد الثالث ، ولكنّ الثلاثة الآخرين وزعيمهم هجموا على الشرطة ، يحمل كل منهم سيفاً بيد ومسدساً بيد أخرى ، فسارعت الفرقة الثانية لنجدة رفاقهم ، واستمرت المعركة مدة قصيرة فقُتل جميع اللصوص أو جرحوا ما عدا زعيمهم الذي كان يقاوم بشراسة .

ولم يعد أمامه مجال للمقاومة فقبض عليه ، وربطت قدماه ويداه ورمي بجانب أصحابه .

أخمدت النار ، فقد اشتعلت في الأغصان اليابسة وبعض الحطب فقط ، ولكن قبل الدخول إلى الأقبية انتظر الضابط وصول النجدة من القرية ، وفي ساعة متأخرة من الليل وصلت عربة تحمل ستة أفراد من الشرطة ، فرموا اللصوص الأسرى في العربة واحداً جانب الآخر ، ونقلوا الجرحى إلى المستشفى .

أثناء ذلك رافقت الضابط في نزوله إلى الأقبية ومعه ثمانية رجال ، ودخلنا دهليزاً طويلاً يتدرج في الهبوط حتى انتهينا إلى الأقبية الواسعة التي جعلها اللصوص مقراً لهم ومنطلقاً لأعمالهم الشريرة .

وكان أحد هذه الأقبية قد تحول إلى زريبة وجدنا فيها الحمير المسروقة ، وقد ربطت أذنابها بحجارة ثقيلة ، فحللنا وثاقها وارتفعت أصوات النهيق تردد صداها الأقبية ، فكانت ضجة هائلة تصم الآذان .

صاح أحد الشرطة :

– سكوتاً أيها الحمير وإلا ربطنا أذنابكم !

فرد عليه شرطي آخر :

– اتركهم ينهقون فإنهم يهتفون بحياة كاديشون !

فضحك الشرطي وقال :

– تمنيت لو أنهم غنوا لنا أغنية سواها .

فقلت في نفسي :

– لا شك أن هذا الرجل لا يتذوق الموسيقا ، فأين النشاز في أصوات رفاقي الحمير ؟ لقد كان المساكين يعبرون عن عودة الحرية إلى أذنابهم ..

تابعنا مسيرنا داخل الأقبية فوجدنا الكثير من الملابس والأدوات المسروقة ، كما أنهم خطفوا عدداً من الرجال يستخدمونهم ، فأحدهم يطبخ الطعام ، وآخر ينظف الأقبية ، وثالث يخيط الملابس والأحذية ، وكان بعض السجناء قد ربطوا بالسلاسل وفي أقدامهم الأجراس تعلن عن مكان وجودهم .

من أين جاء هؤلاء السجناء جميعاً ؟

لقد كانوا من السيّاح الذين يأتون لزيارة الآثار واختفوا منذ أعوام ، وحكوا لنا أن بعض السجناء قد قتلهم اللصوص لأنهم رفضوا إطاعة أوامرهم .

أدى الشرطة واجبهم على خير وجه ، فأطلقوا سراح الأسرى ، ونقلوا المرضى إلى المستشفى ، وأعادوا الحمير إلى القرية ، ورموا اللصوص في السجون .

وأما أنا فكنت فخوراً بما فعلته ، وكلما مررت بالناس أشاروا إليّ بأصابعهم وهم يقولون :

– هذا كاديشون الذي يساوي وحده كتيبة من الحمير .

الفصل العاشر

الصيد

غداً يفتتح موسم الصيد ، وقد استعد له الأولاد لأن هذه أول مرة يصيدون فيها ، وكانت لديهم كل معدات الصيد من بندقية وحقيبة وقبعة واقية ، وقد حملوها وعيونهم تلمع بالفرحة ، ورؤوسهم إلى أعلى وكأنهم يقولون إن كل طرائد المنطقة ستخر صريعة تحت طلقاتنا ، وتبعتهم من بعيد لأرى تحضيرات الصيد .

قال هنري :

– إذا امتلأت حقائبنا بالصيد فأين نضع ما نصيده .

قال بيير :

هذا بالضبط ما أفكر فيه ، وسوف أطلب من أبي أن نأخذ كاديشون معنا .

ولم تعجبني هذه الفكرة إذ أنني أعلم أن الصيادين المبتدئين يطلقون النار في كل اتجاه وعلى كل شيء يتحرك دون احتياط ، فإذا أطلقوا الرصاص على حجلة أصابوا حماراً في مثل حجمي ، وانتظرت بجزع نتيجة هذا الاقتراح .

قال بيير لأبيه :

– هل نستطيع اصطحاب كاديشون معنا ؟

قال الأب ضاحكاً :

– وماذا تفعل به ، هل تركبه لتصيد به وتسابق الطيور ؟

هنري :

– لا يا أبي ، بل لنحمل الطرائد التي ستمتلئ بها حقائبنا .

الأب :

– يحمل طرائدكم ؟ وهل تظنون أنكم ستقتلون شيئاً ؟

هنري :

– حتماً يا أبي ، معي عشرون رصاصة ، وسوف أصيد خمسة عشر طائراً على الأقل .

الأب :

– ها .. ها .. وهل تعرف ماذا ستقتلون ؟

هنري :

– ماذا سنقتل ؟

الأب :

– ستقتلون الوقت ولا شيء سواه .

هنري :

– لا أدري لماذا أعطيتنا البنادق ، ولماذا سمحت لنا بالصيد إذا كنت تظن أننا لن نصيد شيئاً ؟

الأب :

– لقد سمحت لكم بالذهاب إلى الصيد لكي تتعلموا إطلاق النار ، ولا أظنكم ستقتلون شيئاً في المرة الأولى ، ومن كثرة أخطائكم سوف تتعلمون الصواب .

وصل حينئذٍ أوغست الذي كان جاهزاً أيضاً لإطلاق النار على كل من يصادفه ، أما بيير وهنري فقد كانت خدودهما محمرّة من الغضب .

بيير :

– يظن أبي أننا لن نصيد شيئاً ، وسوف نريهم مهارتنا بشكل جيد .

أوغست :

– لا تهتم ، سنصيد أكثر منهم .

بيير :

– سآخذ كاديشون معي دون أن أخبر أحداً ، وسأضع على

ظهره السلال كي نملأها بطرائدنا .

أوغست :

– حسن جداً ، خذ السلة الكبيرة لأننا إذا اصطدنا وَعلاً احتجنا إليها .

وتولى بيير هذه المهمة ، وكنت أضحك في سري ، وكنت واثقاً أني لن أحمل وعلاً على ظهري وسأعود خالي السلال كما ذهبت .

قال آباؤهم :

– هيا يا أولاد سنسير في المقدمة ، وسوف تتبعوننا عن قرب ، وحينما نصل إلى السهل نتفرق جماعات .

ثم هتفوا مندهشين :

– ما هذا ، كاديشون يتبعنا وفوق ظهره سلال كبيرة ؟

قال أبو هنري ضاحكاً :

– لقد فعلوا ما خطر ببالهم ، ويسرني أن يراقب كاديشون الصيد لأن لديه الوقت الكافي ليتسلى .

وسأل هنري :

– هل لقّمت بندقيتك ؟

بيير :

– لا ، وأنتظر ظهور حجلة حتى ألقم بندقيتي .

الأب :

– وصلنا الآن إلى السهل ، امشوا جميعكم في خط واحد وأطلقوا النار إلى الأمام لا يميناً ولا يساراً لئلا يقتل بعضنا بعضاً .

فجأة تطايرت الحجلات في كل اتجاه وبقيت وراءهم زيادة في الحيطة وحسناً فعلت ، فقد انطلق الرصاص من كل صوب ، وجرت بعض الكلاب وكنت أرى أصدقائي الثلاثة يطلقون الرصاص رشاً ولا يصيدون شيئاً ، فلم يصيدوا حجلة واحدة ولا أرنباً ، وقد نفد صبرهم فكانوا يطلقون النار إما بعيداً جداً أو قريباً جداً ، وقد يصوب ثلاثتهم إلى حجلة واحدة ولا يصيبونها ، وأما آباؤهم فعلى العكس ، كل طلقة تصيب حجلة .

وبعد ساعتين اقترب والدا هنري وبيير منهم :

– حسناً يا أولاد هل امتلأت السلال بالطرائد ؟ ألا يوجد لديكم مكان أفرغ فيه حقائبي ؟

فشعر الأولاد بالخجل فلم يجيبوا ، وأما أنا فأسرعت أجري ، وعُرِضت السلال على الأب .

الأب :

– كيف ؟ لا شيء ؟ ستنخرق حقائبكم إذا لم تفرغوها بالسلال .

كانت الحقائب فارغة وجعل الأب يضحك من الصيادين الشباب ، وأفرغ حقيبته في إحدى السلال ثم عاد ليصيد .

أوغست :

– أظن أن أباك قد قتل كمية من الحجل لأن كلبيه يجريان في كل اتجاه ، ونحن لم نصد شيئاً .

هنري :

– قد يكون هذا صحيحاً ، ولعلنا قتلنا كثيراً من الحجل ، ولكن ليس لدينا كلب ليأتي بها .

بيير :

– ولكني لم أر شيئاً يسقط من السماء ؟

أوغست :

– لأن الحجل المصاب لا يسقط فوراً ، بل يطير بعض الوقت ثم يسقط بعيداً .

بيير :

– ولكن حين يصوب أبي النار تسقط الحجلات فوراً .

أوغست :

– تقول هذا لأنك بعيد ، ولو كنت قريباً منها لرأيتها تطير بعض الوقت .

لم يجب بيير ولكنه لم يظهر عليه تصديق ما قاله أوغست ، وكانوا يمشون بخطوات أقل اعتزازاً منذ انطلاق الصيد ، وبدؤوا يسألون عن الساعة .

قال هنري :

– إني عطشان .

قال بيير :

– إنني متعب .

وكان الصيادون يصوبون البنادق ويقتلون الطيور ويتنادون ، ولم ينسوا مرافقيهم من الفتيان ، وخافوا عليهم من الإرهاق ، فتوقف الجميع لتناول الطعام .

جلسوا تحت سنديانة كبيرة وفرشوا ما تحويه سلالهم ، فكان فيها اللحم المقدد والبيض المسلوق وقطعة خبز كبيرة ، واجتمع على الطعام الصيادون جميعاً كباراً وفتياناً وأكلوا بشهية مخيفة ، وكانت الجدة تتوقع هذا فلم تبخل عليهم بالطعام حتى وزعوا منه على حراس

المزرعة ، وشربت الكلاب الحساء لكي تسد جوعها وماء البحيرة لتطفئ ظمأها .

قال والد أوغست :

– لم تكونوا راضين عن صيدكم إذن ، ولا أرى كاديشون يترنح تحت ثقل السلال .

أوغست :

– لا تعجب من هذا يا أبي ، فليس معنا كلاب .

الأب :

– وهل تظن أن كلباً أو اثنين أو ثلاثة تغني عن الصياد الماهر الذي هرب الطرائد أمام أنفه ؟

أوغست :

– لن يقتلوها طبعاً ، ولكنهم يحملون ما اصطدنا .

الأب :

– هل اصطدتم شيئاً ؟

أوغست :

– حتماً يا أبي ولكننا لم نكن نراها تهوي من السماء ولا نستطيع البحث عنها .

الأب :

– وهل تظنها تهوي من السماء وأنت لا تراها ؟

أوغست :

– طبعاً ، لأن بصرنا ليس بحدة بصر الكلاب .

وانفجر الأعمام والأخوال بالضحك على حين احمرّ الأولاد خجلاً .

قال والد بيير :

– إذا كنتم فقدتم طرائدكم لأنه ليس معكم كلاب فسوف أعطيكم كلاباً حين نستأنف السير .

بيير :

– ولكن الكلاب لا تتبعنا لأنها ليست متعودة علينا مثلك .

الأب :

– ولكي نجبرها على السير معكم نعطيكم حارسين لها ، وتتقدمون علينا بنصف ساعة لئلا تحاول الكلاب العودة إلينا .

بيير :

– آه شكراً يا أبي ، إننا واثقون والكلاب معنا بأننا سنصطاد أكثر منكم .

انتهى وقت الطعام وكان الصيادون الفتيان في عجلة من أمرهم لاستئناف الصيد ومعهم الكلاب والحراس ، وقالوا وهم فرحون : " علينا الآن مظهر الصيادين الحقيقيين " .

ومضوا إلى الصيد وتبعتهم من بعيد ، وطلب الآباء من الحراس أن يمشوا بجانب الأولاد لكي يحموهم من الأخطار .

كانت الطرائد تتطاير من كل ناحية مثلما حدث في الصباح ، والفتيان يطلقون النار كما حدث في الصباح ، ولم يكونوا يصيبون شيئاً كما حدث في الصباح ، وكانت الكلاب تؤدي مهمتها على أكمل وجه وتجري في كل اتجاه ولكنها لا تجد شيئاً تمسك به ، ونفد صبر أوغست فصوب نحو حجلة فأخطأها وظن أنه قد يصيبها ثانية إذا سبقها برصاصة ، فلم ير الكلب وهو يتربص من بعيد فأطلق النار عليه فسقط يتخبط في دمائه وينبح من الألم .

فصاح الحارس وهو يجري نحو الكلب :

– أيها الأحمق إنه خير كلابنا .

وما إن وصل حتى فارق الكلب الحياة ، وكان أوغست قد أصابه في رأسه ، فقال الحارس والدمع يسيل من عينيه :

– هذه طريدة ثمينة ، وقد ختمت بها صيدنا .

وقف أوغست حائراً لا يدري ما يفعل ، وتأثر بيير وهنري لمصرع الكلب ، وأما الحارس فكان ينظر إليهم بحقد ، ودنوت لأرى الكلب ضحية الحماقة وسوء التقدير ، فإذا هو صديقي " ميدور " ، بل أخلص الأصدقاء ، ولا أستطيع التعبير عن ألمي وأنا أرى الحارس يحمل ميدور ويضعه في السلة على ظهري .

تلك هي الطريدة التي قُدّر لي أن أحملها ، ميدور صديقي الذي قتله فتى أرعن شديد الغرور .

في طريقنا إلى المزرعة كان الصمت مخيماً على الأولاد ، والحراس يتنهدون حزناً وأسى ، وكان عزائي الندم والمهانة المرتسمين على وجه الصياد المغرور ، وكان الآباء ينتظرون رجوع أبنائهم .

وهتف أحدهم :

– لقد أسرعوا في العودة .

والد بيير :

– أظنهم صادوا طريدة ضخمة ، لأن كاديشون يمشي متثاقلاً ينوء بحمله ، وإحدى سلاله مائلة كأنها أثقل من الأخرى .

ونهضوا متوجهين إلينا ، وآثر الفتيان البقاء بعيداً ، فلم يعجب مشهدهم آباءهم .

والد أوغست :

– لا تبدو عليهم علائم الانتصار .

والد بيير :

– لعلهم قتلوا ثوراً أو خروفاً وحسبوه أرنباً !

ودنا الحارس منهم .

الأب :

– ماذا حدث يا ميشو ؟ يبدو عليك الحزن مثلما يبدو على الصيادين .

فأجاب الحارس :

– كيف لا أحزن وقد جئنا بصيد بائس ؟

الأب :

– ما هذا الصيد ؟ خروف أم ثور أم جحش ؟

الحارس :

– لا تسخر يا سيدي ، إنه أفضل كلابك " ميدور " ، وقد قتله أوغست وهو يظنه حجلة .

الأب :

– ميدور ! اقترب يا أوغست ، هذه نتيجة غرورك وحبك

للمظاهر ، ودّع أصحابك لأنك ستعود إلى البيت في الحال ، واترك بندقيتك في غرفتي ولا تلمسها حتى تتعلم الرزانة والتواضع .

رجعنا إلى البيت والكآبة تسيطر علينا ، وأصر الأولاد على دفن الكلب البائس في الحديقة ، وكان أفضل أصدقائي ، وسوف أروي لكم السبب الذي جعلني أحبه حباً شديداً .

الفصل الحادي عشر

"ميدور"

عرفت ميدور منذ زمن طويل حين كنت صبياً ، وكان يصغرني سناً حينما تعارفنا ، وجمع الحب بين قلبينا .

وكنت أعيش حياة بائسة لدى أولئك المزارعين الأشرار الذين اشتروني من بائع حمير ، وقد هربت منهم بعدئذ ، وكنت نحيفاً لأني أعاني الجوع الدائم ، وأما ميدور فكان كلب الحراسة لديهم ، وهو من أفضل كلاب الصيد أيضاً ، ولكنه أقل تعاسة مني ، إذ يلهو مع الأطفال فيقدمون إليه الخبز وبقايا الحليب ، وقد اعترف لي بأنه حين يمضي إلى حجرة الألبان مع سيدته يجد الوسيلة ليشرب بضع جرعات من الحليب على غفلة منها ، أو يلعق بضع قطع من الزبدة أو القشدة .

كان ميدور طيباً ، يرق لضعف جسدي ونحوله ، فجاءني ذات يوم بقطعة خبز مفتخراً ، وخاطبني بلسانه :

– خذ يا صديقي البائس ، فإن ما عندي من الخبز يفيض عن حاجتي ، وليس لديك سوى الشوك والعشب اليابس الذي لا يكفي

لسد رمقك .

قلت له :

– إنك تحرم نفسك لتطعمني ، ولستُ بائساً كما تظن ، فقد تعودت قلة الطعام وقلة النوم ، وتعودت كثرة العمل وشدة الضرب .

قال ميدور :

– لستُ جائعاً يا صديقي ، وبرهن لي عن صداقتنا بقبولك هذه الهدية ، وهي شيء يسير ، وأسعدني بقبولها ، ولسوف آسف إذا رفضتَها .

فقبلتها وقلت له :

– لأني أحبك فإني أقبلها منك .

كان ميدور يرقبني وأنا ألتهم الخبز التهاماً ، وشعرت بالتحسن بعد هذه الوجبة الإضافية ، واعترفت لميدور بفضله عليّ ، فكان يأتيني كل يوم بقطعة كبيرة من طعامه ، فإذا حل المساء يأتي إلى الزريبة فيجلس بجانبي نتسامر ونتبادل الرأي دون أن ننطق بالكلمات ، فلسنا من البشر الذين يكثرون من الحديث ، بل نكتفي بلغة العيون تعبّر عما في أنفسنا ، وبحركات الرؤوس تفصح عن

أفكارنا ، وقد نحرك الأذناب إذا اضطررنا إلى التعبير عن موضوع فلسفي عميق ..

ذات مساء جاءني حزيناً يائساً ، وقال لي :

– لا أظنني يا صديقي قادراً على أن آتيك بقطعة خبز من طعامي ، فقد رأى أصحاب البيت أني قد كبرت ولا بد من ربطي ، ولا يطلقون سراحي إلا ليلاً لحراسة المنــزل ، كما أن ربة الدار وبّخت أولادها لأنهم يسرفون في إعطائي الخبز ، ومنعتهم من تقديم الطعام إلي ، وسوف تتكفل هي بإطعامي لكي أغدو كلب حراسة عظيماً .

قلت له :

– يا صديقي ميدور ! إن كان ما يقلقك هو الخبز الذي تأتيني به ، فتأكد أنه لا حاجة لي به ، فقد اكتشفت هذا الصباح ثقباً في حائط مخزن العلف ، فأنا آكل منه كفايتي .

هتف ميدور :

– نطقت بالصواب ، وكم يسرني أن أقسم طعامي معك ، ولكن ما يحزنني هو البقاء مربوطاً طول النهار ، محروماً من الحديث معك .

ومنذ ذلك اليوم لم أعد أرى صديقي ميدور ، ولكني سمعت ذات مساء صوت نباحه ، ونظرت فإذا الفلاحة الشريرة ممسكة به وولدها ينهال عليه بالسياط ، فاندفعت عبر السياج وارتميت على الولد وعضضته من ذراعه حتى سقط السوط من يده ، وتركت الفلاحة ميدور فجرى هارباً ، وهذا ما أردته ، والتفت لأعود إلى زريبتي وإذا يد تمسك أذني والفلاحة تصيح بولدها :

– ناولني السوط الكبير أؤدب به هذا الحيوان الخبيث ، فإني لم أر أسوأ منه في حياتي ، أو اضربه أنت !

فقال :

– ولكني لا أقدر على تحريك يدي .

فحملت الفلاحة السوط وجرت نحوي ، ولم أكن غبياً لأنتظر وصولها ، فكنت أقفز هارباً وهي تتبعني ، فإذا ظنت أنها قريبة مني ابتعدت عنها ، لقد عبثت بها كما أحببت ، وكان العرق يتصبب من جبهتها وأنا مرتاح سعيد بشقائها .

وبعد أن أخذت ثأر صديقي نظرت باحثاً عنه فوجدته قرب الزريبة ينتظر ذهاب سيدته الشريرة ، وهتفت بي :

– سترى ما أفعل بك حين أضع البردعة فوقك .

حينما ابتعدت ناديت ميدور وكان مختبئاً داخل حفرة ، وسألته عما دفع الأم وولدها إلى ضربه ، فقال :

– لقد أخذت من الأرض قطعة خبز رماها أحد الأولاد ، فنادت ابنها وتعاونا على ضربي .

– ولم يدافع أحد عنك ؟

– يدافعون عني ؟ بل فرحوا بمصيبتي ، وكانوا يحثون الولد على ضربي ويصفقون فرحين لعذابي .

وسألت ميدور :

– ولكن لماذا أخذت قطعة الخبز من الأرض ؟ ألا يكفيك عشاؤك ؟

فلم يجب ميدور في الحال ، ولكنه قال :

– إنه يكفيني ، ولكن ظننت أنك بحاجة إلى هذه القطعة من الخبز .

– يا حبيبي ميدور ! هل فعلت هذا من أجلي ؟ لن أنسى فضلك علي ما حييت ، يا أحسن الأصدقاء وأوفاهم ، ولكن لا تعد إلى هذا ثانية ، فلست أتلذذ بقطعة خبز تسبب العذاب لك ، وأفضل أن آكل الشوك على أن ينالك مكروه .

وتحدثنا وقتاً طويلاً ، وأخذت العهد على ميدور بألا يعرض نفسه للضرب من أجلي ، كما عاهدته على إيذاء أصحاب المزرعة ما استطعت ، وذات يوم كان الطفل يتنـــزه مع أخته فرميتها عن ظهري في حفرة من الطين .

وفي يوم آخر لاحقت الطفل وتظاهرت بأني أريد أن أعضه ، فانطلق يجري كالمجنون .

ولكن أكبر انتقام لصديقي ميدور ، كان يوم حملت سلالاً من البيض على ظهري إلى السوق ، فادعيت أن مغصاً أصابني فجعلت أتلوى على الأرض ولم أترك بيضة سليمة ، ولم تجرؤ الفلاحة على ضربي لأنها حسبتني مريضاً فعلاً ، وخشيت عليّ الهلاك وضياع ثمني ، فقدمت لي العلف والماء وأحسنت عنايتها بي ، وكم ضحكت أنا وميدور ذلك اليوم ، وآخر مرة آذيت فيها الفلاحة كانت حين نشرت غسيلها على السياج فنـــزعته واحداً بعد الآخر ورميته في حفرة الطين ، وقضت النهار كله بحثاً عنه حتى وجدته ، فضربت الخادمة التي ضربت الأولاد الذين ضربوا الكلاب التي ضربت القطط ، فكانت المزرعة كلها يضرب بعضها بعضاً وأصواتهم تتعالى ، وكم ضحكنا ذلك اليوم حتى نفر الدمع من عيوننا ..

كنت أفكر في هذه الحماقات التي ارتكبتها وألوم نفسي على فعلها لأني انتقمت من أشخاص أبرياء لا علاقة لهم بمن ظلمني ، وكان ميدور يعاتبني أحياناً وينصحني أن أكون أكثر تسامحاً ، ولكن لم أسمع نصيحته ، ولذلك غدوت ميالاً إلى الشر ، فكان أن عاقبني الله على هذا أشد العقاب كما سنرى ..

ذات يوم حزين جاء رجل إلى ميدور فربّت على رأسه ثم مضى إلى الفلاّحة فاشتراه منها بمائة فرنك ، وكانت الفلاحة في غاية الفرح لأنها لا تعرف مزايا ميدور ، فربطه سيده الجديد بحبل وجره وراءه ، فنظر إليّ نظرات الألم والحسرة ، وكنت أجري حول السياج بحثاً عن ثغرة أنفذ منها لوداع صديقي فلا أجدها ، ومنذ ذلك الحين نالني السأم ، فحدثت لي حكاية السوق والهرب إلى الغابة ، وكنت أذكر صديقي على الدوام ، وأتمنى لو التقيت به ، ولكن أين أجده ؟ وقد علمت أن سيده الجديد يسكن المنطقة ذاتها ، وأنه جاء يزور أحد أصدقائه فيها .

حين ساقني جاك الصغير إلى مزرعة جدتك شعرت بالغبطة لأني التقيت بميدور بصحبة أعمامك وأبنائهم بيير وهنري وأوغست ، وكم تمنيت أن ترى لحظة لقائنا ، فقد قفز إلى عنقي وهو ينبح فرحاً ،

وكنت أتبعه حيثما جرى لأني عثرت على صديقي الوفي ، وليتك تفهم لغتنا لعرفت ما يكنّه أحدنا للآخر من ودٍ وحبٍ وتقدير .

كانت سعادة ميدور لا توصف لما رآه من علامات الرضا والسكينة البادية على وجهي ، وهنأني على هؤلاء السادة الجدد الذين عرفوا في المنطقة كلها بحسن الأخلاق والكرم والشهامة ، ولم يتوقف عن لومي لما فعلته بأبي جورج ، ونصحني أن أكفّر عن هذه الأعمال السيئة بالإخلاص لسادتيّ الجدد .

وكم كان اعتزازه به عظيماً حين رويت له حكاية سباق الحمير ، ولكنه نبح ألمًا لموت بولين ، وسالت دموعه على خديه حزناً عليها ، وتعجب من سوء تصرف أهلها وتخلّيهم عني .

الفصل الثاني عشر

الحمار العالم

ذات يوم كنت أرعى في المروج قرب القصر ، وكان الأطفال يلعبون بجانبي ، يتسابقون أو يقفزون على ظهري ، ويظهرون براعتهم ويحسبون أنهم يقومون بحركات بهلوانية ، وكان جاك أكبر منهم حجماً ،سمين البطن ، بطيء الحركة ، وأما لوي فقد استطاع أن يمسك بذيلي ، ويقفز فوق ظهري ، ولا يجاريه جاك في ذلك إلا بعد عناء شديد .

ولكي أسهل عليهم القيام بهذه الحركات دون أن ينالهم أذى ، وقفت قرب مرتفع من الأرض ، حينئذٍ سمعنا جماعة من الأولاد يهتفون قائلين :

– سنذهب غداً إلى المعرض لنتفرج على الحمار العالم .

جاك :

– الحمار العالم ؟ ما هذا الحمار العالم ؟

إليزابيت :

– إنه حمار يقوم بألعاب وحركات كثيرة .

جاك :

– أي نوع من الألعاب والحركات ؟

مادلين :

– ألعاب وحركات ستراها بنفسك .

جاك :

– ولكنه ليس ماهراً مثل كاديشون .

هنري :

– كاديشون ؟ قد يكون حماراً ذكياً ولكنه لا يقدر على تأدية الحركات التي يقوم بها الحمار العالم .

كاميل :

– بيير على صواب ، انتظروا حتى نرى المعرض .

إليزابيت :

– وماذا سنفعل بعد المعرض ؟

مادلين :

– سنرقص ونغني .

ولكن جاك ولوي انتظرا انصراف الأولاد وتهامسا فيما بينهما ، وحين ابتعدوا بدأا يرقصان حولي وهما يغنيان :

(كاديشون .. كاديشون ..

ستذهب إلى المعرض

وسيرقص الحمار العالم

وترى ما يفعله

وبعدها تقلده

فيعجب بك الناس

ويصفقون لك

ونكون بك فخورين

كاديشون .. كاديشون ..

أرجوك أرهم من أنت) ..

إنها أغنية جميلة

لوي :

– هذا شعر جميل .

جاك :

– شعر ؟ كنت أظن نظم الشعر شيئاً صعباً .

لوي :

– ليس صعباً كما ترى ، على لساني إذا جرى .

جاك :

– هيا نسمعهم أشعارنا .

لوي :

– إذا سمعوا أشعارنا عرفوا ماذا سنفعل ، والأفضل أن نفاجئهم به .

جاك :

– ولكن أتظن أن أبي وعمي يسمحان لنا بأخذ كاديشون إلى المعرض ؟

لوي :

– حتماً ، إذا عرفا السبب الذي يدعونا إلى أخذه معنا إلى المعرض .

جاك :

– هيا نسألهما .

وأسرعا إلى البيت ، وكان والداهما قادمين إلى الحقول ليريا ماذا يفعل الأولاد .

– بابا ، بابا ، لدينا شيء نقوله لك .

– تكلما ، ما هو ؟

– تعال إلى هنا لئلا يسمعنا أحد .

وجذب كل منهما والده إلى ناحية .

قال أبو لوي ضاحكاً :

– ماذا هناك ؟ وماذا تدبران من مؤامرات ؟

قال لوي :

– هل تعلم أنه يوجد حمار عالم في المعرض ؟

أبو لوي :

– لا ، لا أعلم ، ولكن ماذا نفعل به وعندنا كاديشون ؟

لوي :

– هذا رأينا أيضاً ، لأن كاديشون أعلم من كل الحمير ، سيذهب أبناء عمي وبنات عمي وإخوتي إلى المعرض لرؤية ذلك الحمار ، ونريد أن نأخذ معنا كاديشون ليراقب الحمار ثم يقلده .

أبو جاك :

– كيف ؟ هل يجلس كاديشون بين الجمهور ويتفرج على الحمار ؟

جاك :

– نعم ، وبدلاً من الذهاب بالعربة نركب ظهر كاديشون ،

ونتفرج كلنا على ذلك الحمار .

أبو جاك :

– أتمنى لو أن كاديشون يستطيع تعلم شيء جديد !

جاك :

– ألن تتعلم شيئاً من ذلك الحمار ، ثم تفعل أحسن منه ؟

حينما وجه إليّ جاك هذا السؤال كانت الحيرة بادية على وجهه ، فنهقت نهيقاً خفيفاً لأؤكد له مقدرتي وأطمئنه .

فقال جاك مزهواً :

– أسمعت يا أبي ، لقد وافق كاديشون على طلبي .

فضحك الجميع ، ووعد الوالدان بأن يأتيا إلى المعرض ليتفرجا مع الأولاد .

قلت لنفسي : " كيف يشكّان في مهارتي ؟ ولا ريب أن الأطفال أكثر اطلاعاً عليها من آبائهم " . وحان يوم المعرض ، قبل ساعة من الذهاب اعتنى بي الأطفال أشد عناية ، فغسلوا شعري ومشطوه ، ووضعوا على ظهري بردعة جديدة ، وزينوا عنقي برسن جديد ، وأعلن لوي وجاك أنهما سيذهبان باكراً لئلا يصلا متأخرين ، وسألهما هنري :

– لماذا تذهبان باكراً ، وكيف تذهبان ؟

لوي :

– سنذهب راكبين كاديشون ، وسنمضي باكراً لأننا لن نسرع .

هنري :

– ستذهبان وحدكما .

جاك :

– سيأتي أبي وعمي معنا .

هنري :

– ستسأمان من المشي البطيء .

لوي :

– لن نسأم من صحبة والدينا .

هنري :

– أفضل الذهاب بالعربة ، ونصل قبلكم .

جاك :

– لا ، سنصل قبلكم ، لأننا سنذهب باكراً .

كان الوالدان جاهزين للسفر ، فوضعا الطفلين على ظهري ،

ومشيت بأناة واتزان فخوراً بملابسي الجديدة ، ولم أكن أسرع في خطواتي لئلا أتعب الولدين .

بعد ساعة وصلنا ساحة المعرض ، وقد تجمع جمهور غفير من الناس حول دائرة يحيط بها حبل ، حيث سيؤدي الحمار العالم حركاته وألعابه ، وجلسنا جميعاً في الصف الأمامي قريباً من الحبل ، وتوافد الناس فجلسوا بجانبنا أو وراءنا .

أعلنت دقات الطبول عن ظهور الحمار العالم ، فتوجهت كل الأنظار نحو الحاجز ، ثم تحرك الحاجز وظهر الحمار العالم ، كان نحيلاً ضئيلاً يظهر عليه الحزن والكآبة ، فناداه سيده فاقترب متباطئاً وقد بدا عليه الجزع ، ولعله كان يضربه ليعلمه هذه الحركات .

قال سيده :

– سيداتي سادتي .. يشرفني أن أقدم إليكم " ميرليفلور " أمير الحمير ، وهو ليس حماراً مثل سواه من الحمير ، إنه حمار عالم ، ولعله أعلم من كثير من الناس ، إنه الحمار المتفوق الذي لا شبيه له .

هيا ، ميرليفلور أرهم ما تستطيع أن تفعله ! ولكن قبل ذلك قدم تحياتك إلى هؤلاء السادة والسيدات كما يليق بالحمار المهذب .

فتقدم الحمار ثلاث خطوات وحيا الجمهور بحركة من رأسه .

وقد أثار هذا الخطاب غضبي حتى عزمت على الانتقام بعد نهاية العرض ، وتابع المدرب قوله :

– هيا ميرليفلور ، احمل هذه الباقة من الزهور لأجمل سيدة في الحضور . وضحكتُ إذ رأيت كل السيدات يهيئن أنفسهن لتلقي باقة الزهور ، ولكن الحمار تنقل بينهن ، ثم وقف أمام سيدة سمينة قبيحة هي زوجة سيده ، وكانت تمد له يدها بقطعة سكر ، ووضع باقة الزهور أمامها .

أغضبتني قلة الذوق هذه فقفزت فوق الحبل إلى داخل الحلقة وقد دهش الحاضرون ، فانحنيت للتحية يميناً ويساراً أمامي وورائي ثم مشيت بخطوات واثقة نحو السيدة السمينة فانتزعت الباقة منها ثم وضعتها على ركبتي كاميل ، ثم رجعت إلى مكاني والحاضرون يصفقون لي ، وتساءل الناس عن معنى هذه الحركة وظن البعض أنها مرتبة مسبقاً وأن هناك حمارين عالمين لا حماراً واحداً ، وأما الذين يعرفونني فقد شعروا بالسرور لحدة ذكائي .

وظهرت الكآبة على السيد ميرليفلور ، ولم يهتم الحمار بهذا الانتصار الذي حققته ، فتأكد لي أنه دابة غبية فعلاً ، وهذا شيء نادر بيننا نحن الحمير ، وحين عاد الهدوء نادى المدرب ميرليفلور :

– بعد أن عرفت الجمال ، دلنا الآن على الحماقة ، وضع هذه القبعة على رأس الشخص الأحمق بين الحاضرين . وقدم له قبعة أو طرطوراً مزيناً بالأشرطة الملونة والأجراس ، فحملها ميرليفلور بين أسنانه ثم مضى إلى حيث يجلس طفل أحمر الشعر سمين ، فخفض رأسه ليساعد الحمار على وضع الطرطور عليه .

وكان الشبه واضحاً بين هذا الطفل وبين أمه السمينة التي أعلنها الحمار سيدة الجمال فقلت في نفسي :

حانت ساعة الانتقام .

وقبل أن يفكر أحد بإمساكي قفزت إلى وسط الحلبة وخطفت الطرطور من رأس الصبي وجريت إلى المدرب ورفعت قائمتي الأماميتين على كتفه لكي أضع الطرطور على رأسه ، فدفعني عنه وقد ازداد هياجه ، حينها تعالت أصوات التصفيق من كل جانب وسمعت من يقول :

– أحسنت كاديشون ، إنه الحمار الحقيقي فعلاً .

وشجعتني الهتافات على القيام بمحاولة ثانية لوضع الطرطور على رأسه ، فكان يتراجع إلى الوراء وأتقدم إليه لألبسه الطرطور دون أن أؤذيه بحافري ، ودرنا عدة مرات في الحلبة والناس يضحكون

ويهتفون ويصفقون ، وخطر لي أخيراً أن أحسن وسيلة هي الإمساك به من الخلف ، فثبت قائمتي الأماميتين على ظهره فسقط على الأرض ، فانتهزت هذه الفرصة فأدخلت الطرطور في رأسه حتى غطى عينيه وتراجعت إلى الوراء ، ونهض الرجل يتلمس طريقه كالأعمى وقد آلمه السقوط ، ولكي أكمل هذه المهزلة صرت أقلده وأمثل حركاته فأدور وأقفز وأغمض عيني وأتلمس الطريق وأنهق في أذنيه حين اصطدم بي .

كيف أصف لكم تلك اللحظات المؤثرة من الضحك والتصفيق والهتاف ؟

ولا أظن أن حماراً في العالم استطاع الحصول على مثل هذا النجاح ، إذ تدافع المئات من الحاضرين لكي يلمسوا رأسي أو يروني عن قرب ، وأما الذين يعرفونني من قبل فكانوا فخورين بي ، وهم يروون عني حكايات صادقة أو كاذبة تدل على ذكائي ، فزعم أحدهم أني أطفأت حريقاً بأن شغلت وحدي آلة الإطفاء ، ثم صعدت إلى الطابق الثالث لأنقذ سيدتي الحسناء النائمة ، وقد حملتها على ظهري وقفزت إلى الأرض ولم يصب أحدنا بأذى ، ذلك برهان على قوة تحملي ، وزعم آخر أني قضيت على خمسين لصاً بضربات

حوافري ، فكنت أرفس الواحد بعد الآخر قبل أن ينتبه إليه أصحابه .

ثم إني جريت إلى المغارة ، فأطلقت سراح خمسين من الأسرى الذين قيدهم اللصوص بالسلاسل ، وادعى شخص ثالث أني دخلت سباق الخيل وربحت الجائزة الكبرى الخاصة بالتحمل ، فجريت خمسة وعشرين ميلاً في ساعتين .

وما زالت هذه الحكايات الملفقة تنتشر حتى تدافع الناس حولي إعجاباً بي ، وتدخلت الشرطة لتفريق الجمهور . ولحسن الحظ فإن آباء الأطفال لويس وجاك وكاميل والآخرين قد أخذوهم بعيداً عني لئلا تدوسهم أقدام الناس .

وانتزعت نفسي بصعوبة من أيدي المعجبين الذين أرادوا حملي على أعناقهم ، فاضطررت إلى عض هذا وركل ذاك ، ولكن دون أن أصيب أحداً بأذى لكي أشق طريقي وأنجو بنفسي .

وبحثت عن الأولاد فلم أجدهم ، وكنت أريد أن أحملهم على ظهري لئلا يعودوا إلى المزرعة مشياً على الأقدام ، وأسرعت إلى الإسطبل فوجدت أنهم قد أخذوا العربة وربطوا إليها الخيول ، فجريت إلى الطريق العام المؤدية إلى القصر بكل قوتي لكي ألحق بهم ،

فوجدتهم راكبين العربة رجالاً وأطفالاً ، وهتف الأطفال حين رأوني :

– كاديشون .. كاديشون ..

فوقفت العربة وتدافع الأطفال إلي يعانقونني ويهنئونني على انتصاري ، وقال جاك :

– لقد كنت رائعاً واستطعت بذكائك أن تكتشف حيلة الرجل وحماره الغبي .

وقال بيير :

– ولكني أريد أن أعرف لماذا كان يصر على أن يلبس الرجل ذلك الطرطور ؟ هل أراد أن يؤكد للجمهور أنه أغبى من حماره ؟

كاميل :

– لا ريب أنه فهم هذا .

إليزابيت :

– تقولين هذا لأنه قدم لك باقة الزهور وحسبت أنك أجمل البنات .

كاميل :

– لم أفكر بهذا الموضوع وقد نسيته تماماً ، وكنت مندهشة لأنه قدم الباقة إلي ولم يقدمها إلى أمي التي كانت أجمل الحاضرات .

بيير :

– أنت تنوبين عن أمك وأظنك أجمل الحاضرات بعدها ، وقد أحسن كاديشون الاختيار .

مادلين :

– وأنا ؟ هل أنا بشعة ؟

بيير :

– لا ، لا بالطبع ، ولكن لكل امرئ ذوقه ، وقد اختار كاديشون كاميل .

إليزابيت :

– ولكن بدل الاختلاف بين الأبشع والأجمل علينا أن نسأل كاديشون كيف فهم كلام الرجل .

هنرييت :

– إن كاديشون لا يتكلم للأسف وإلا لكان روى لنا حكايات طريفة !

إليزابيت :

من قال إنه لا يفهم ! لقد قرأت مذكرات عروسة من الخشب ، وذكرت أنها كانت تسمع كل ما يقال وترى كل ما يجري أمامها .

هنري :

– هل تؤمنين بهذا ؟

إليزابيت :

– طبعاً أؤمن به .

هنري :

– وكيف تستطيع العروسة الكتابة ؟

إليزابيت :

– تكتب بريشة من جناح بلبل وتخفي مذكراتها تحت سريرها .

مادلين :

– لا تصدقي هذه الخرافات ، لأن مذكرات عروسة كتبتها إحدى الأديبات لكي تجعل الكتاب أكثر تشويقاً .

إليزابيت :

– أليست العروسة هي التي كتبت المذكرات ؟

كاميل :

– لا ، طبعاً ، كيف تستطيع الكتابة عروسة من الخشب ، لا حياة فيها لكي تفكر وترى وتسمع وتكتب ؟

ما زال الأولاد يتبادلون الحديث حتى وصلنا إلى القصر ، فجروا

للقاء جدهم التي بقيت في البيت ، وحكوا لها ما فعلته وكيف أدهشت الناس وأمتعتهم ، فقالت وهي تمسد شعري :

– إنه رائع فعلاً ، وكم رأيت من حيوانات ذكية ولكني لم أر حيواناً بمثل ذكاء كاديشون ، ويجب الاعتراف بأننا لا نعامل الحيوانات معاملة حسنة ، إذ يجب علينا الرفق بهم والإحسان إليهم .

ثم تابعت وهي تنظر في عيني :

– أظنه يفهم ما أقول ، أعاهدك يا كاديشون ألا أبيعك ما دمت على قيد الحياة ، وسوف أعتني بك مثلما أعتني بهؤلاء الأولاد من حولي .

وأردت أن أقول : " يا سادتي الصغار ! حين تموت جدتكم احتفظوا بي ولا تبيعوني واتركوني أموت وأنا أخدمكم " .

وندمت لأني عبثت بسيد الحمار العالم ، وتمنيت لو أنني ما ارتكبت كل هذه الحماقات لأبين للناس ذكائي .

الفصل الثالث عشر

الحصان القزم

لم تنطفئ نار غضبي من أوغست ، ذلك الولد المغرور الذي أطلق النار على صديقي الكلب ميدور ، وأردت أن أنتقم منه فعمدت إلى بعض الألاعيب التي ندمت عليها الآن .

بعد أن غاب عن الأنظار مدة طويلة جاء به أبوه ليلعب مع الأولاد ، فسأل بيير كاميل :

– ماذا نفعل لكي نسلي هذا الفتى ؟

كاميل :

– أقترح عليه أن نتسابق على الحمير في الغابة ، فيركب هنري ظهر كاديشون ، ويركب أوغست حمار المزرعة ، وتركب أنت ظهر حصانك القزم .

بيير :

– هذه فكرة جيدة ولكن أتمنى أن يقبلها .

كاميل :

– يجب أن يقبلها ، وما عليك سوى أن تسرج الحصان القزم

والحمير ، وحين تكون جاهزاً تدفعه إلى ركوب حماره .

مضى بيير ليرى أوغست الذي كان يقدم نصائحه الغبية إلى لوي وجاك ليساعدهما على زراعة حديقتهما الصغيرة ، فكان ينـــزع الخضار ويبدل مكان شتلات الأزهار ، وينشر الفوضى في كل مكان ، ويحاولان منعه ولكن يبعدهما بضربة من قدمه أو من مجرفته ، وحين وصل بيير كانا يبكيان من الألم والحزن على حديقتهما .

فسأله بيير بلهجة حانقة :

– لماذا تتعدى على هذين الصغيرين ؟

أوغست :

– لا أتعدى عليهما بل أساعدهما .

بيير :

– ولكنهما لا يحتاجان إلى مساعدتك .

أوغست :

– يجب مساعدتهما رغماً عنهما .

لوي :

– يتعدى علينا لأنه أكبر منا ، ولا يجرؤ عليك أو على هنري .

فرفع أوغست كتفيه مفتخراً وسأل :

– ماذا تريد مني يا صديقي ؟ هل كنت تبحث عني ؟

– نعم جئت أقترح عليك التسابق على الحمير ، فإذا رغبت في هذا ذهبنا جميعاً .

فأجاب أوغست بفرحة ظاهرة لأن الفتيان بدؤوا يهتمون به :

– طبعاً سأكون مسروراً للمشاركة في السباق .

مضى الجميع إلى الإصطبل فأسرج السائس الحصان القزم وصديقي حمار المزرعة وأنا .

أوغست :

– آه ، لديكم " البوني " ، أنا أحب هذه الخيول القزمة .

بيير :

– إنه هدية جدتي إليّ .

أوغست :

– أتمنى أن أركب هذا البوني .

بيير :

– لا أنصحك أن تفعل إذا لم تتعلم ركوب الخيل .

أوغست :

– لم يسبق لي أن ركبت حصاناً ، وأظن أنه لا يختلف كثيراً عن

ركوب الحمير .

بيير :

– أكرر لك النصيحة يا أوغست ، إذا لم يسبق لك أن ركبت حصاناً فلا تركب هذا البوني .

أوغست :

– لماذا تبخل علي به ؟ سأركبه مرة واحدة فقط .

بيير :

– أخاف عليك لأنه نزق .

أوغست :

– وإن كان نزقاً !

بيير :

– قد يطرحك أرضاً .

أوغست :

– لا تخف فأنا أمهر مما تتصور ، وسوف تراني كيف أركب الحصان كأفضل الفرسان .

بيير :

– كما تشاء ، اركب " البوني " وأنا أركب حمار المزرعة ،

ويركب هنري كاديشون .

تقدم أوغست من " البوني " فنفر منه وقفز عدة قفزات ، فنظر إليه أوغست قلقاً وقال :

– اهدأ متى أركب ظهرك .

السائس :

– لا تخف يا سيدي فالحيوان ليس شرساً .

– لست خائفاً ، وهل يظهر علي الخوف ؟

– ولكني أرى وجهك مصفراً .

– لأنني كنت مريضاً منذ أيام .

– وأرى أطرافك ترتعش

– لأني لم أبرأ من مرضي تماماً .

فعض أوغست على شفتيه من الغضب واحمر وجهه ولكنه لم يقل شيئاً ، ثم ركب ظهر الحصان القزم وجذب رسنه .

فتراجع الحصان إلى الوراء وتمسك أوغست بالسرج فقال السائس ضاحكاً :

– لا تجذب الرسن يا سيدي ، لا تجذبه فلا يمكن أن تسوق الحصان كما تسوق حماراً .

وأرخى أوغست العنان .

انطلقت أمامهم مع هنري ، وتبعنا بيير على حمار المزرعة ، وتخابثت وبدأت أهرول ، وحاول الحصان أن يسبقني فزدت سرعتي ، فكان بيير وهنري يضحكان وأوغست يصرخ وقد أمسك بشعر حصانه ، وأسرعنا جميعاً وقد عزمت ألا أخفف من ركضي ، إلا إذا طرح الحصان أوغست أرضاً ، وقد توفز الحصان من سماعه الضحك والصراخ فسبقني فلحقت به وأنا أعض له ذيله إذا حاول الإبطاء ، وما زلنا نتطارد هكذا حوالي ربع ساعة وأوغست ممسك بشعر حصانه ، فأمسكت ذيل الحصان بأسناني وعضضته بكل قوتي فركلني عدة ركلات ، في الركلة الأولى وصل أوغست إلى رأس الحصان وتعلق بأذنيه وفي الركلة الثانية سقط أرضاً لا حراك فيه .

سارع إليه بيير وهنري يسألانه إن كان قد أصابه أذى ، فأجابهم وهو بأسوأ حال :

– لا لم أصب بأذى .

ونهض يرتجف من الرعب ، ركبتاه ترتعدان وأسنانه تصطك ، وحين تأكد بيير وهنري أنه سليم معافى قال له بيير :

– ما كنت أظنك جباناً إلى هذا الحد ، وآمل ألا تفكر بالمستقبل

بركوب الخيل ، خذ حماري هذا وسأركب الحصان .

ولم ينتظر جوابه بل قفز على ظهر الحصان بخفة ومهارة ، فقال أوغست :

– سأركب كاديشون إذاً .

– كما تشاء .

كنت عازماً على منعه من ركوب ظهري ، ولكني فكرت في خطة أخرى تخدم غايتي في الانتقام من قاتل صديقي ، وترضي غروري الشخصي ، فتركته يمتطيني وتبعت الحصان القزم من بعيد ، ولو تجرأ أوغست على ضربي لرميته أرضاً ، ولكنه كان يعرف مكانتي لدى سيدي لذلك خلاني أسير على راحتي . وتعمدت طول سيرنا في الغابة أن أحتك بالأجمات والشجيرات ، وخاصة تلك التي لها أشواك طويلة ، حتى تجرحت قدماه وتركت الأغصان أثرها على وجهه ، فشكا إلى هنري فأجابه :

– إن كاديشون يسيء معاملة الأشخاص الذين لا يحبهم ، ولعلك من هؤلاء الأشخاص .

وكان طول الطريق يشكو من طريقتي في السير ، فحيناً أهتز به وحيناً أسرع ثم أبطئ وأتعمد أن أمشي تحت الأشجار حتى تصيب

الأغصان وجهه ، ولكن خطتي لم تكتمل لأننا اقتربنا من المزرعة ، وكان في نهايتها حفرة كبيرة تصب المجاري فيها ، وما أن وصلنا إليها حتى قفزت قفزة عالية ورفست بحافري رفسة رمت أوغست في وسط الحفرة ، ووقفت على حافتها أتمتع برؤيته غارقاً في الوحول والأوساخ .

تذكرت حينئذٍ صديقي القتيل ميدور ، فرفعت صوتي بالنهيق :

– ميدور ، ميدور ، لقد انتقمت لك !

ولم أفكر بالأذى الذي سببته لهذا الفتى فقد أعماني حب الانتقام وسيطرت علي رغبة شريرة أسأل الله أن يشفيني منها .

حين وصل بيير وهنري إلى المزرعة لاحظا تخلف أوغست عنهما ، ولكنهما رأياني واقفاً قرب الحفرة ، فأسرعا نحوي وأدركا الخطر الذي يتهدد أوغست وهو يتخبط محاولاً إنقاذ نفسه.

فناديا خادم المزرعة فأسرع إليه ومد له يد المجرفة فتعلق بها وجذبوا أوغست ، وحين استلقى على الأرض لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه ، فقد كانت رائحته لا تطاق ..

قال بيير :

– يجب أن نخبر أباه .

وقال هنري :

– يجب أن أخبر أبي وأعمامي لعلهم يعرفون طريقة أكيدة لتنظيفه .

قال بيير :

– هيا يا أوغست اتبعنا ، ولكن من بعيد لأن رائحتك تقتل الذباب .

وكان الموقف كالتالي : أنا كاديشون في المقدمة أنهق وأقفز فرحاً بالانتقام ، وهنري وبيير يصرخان بي ويطلبان مني التوقف عن النهيق ، وعلى بعد عشرة أمتار أوغست يسير مطرق الرأس .

جذبت الضجة انتباه سكان المزرعة ، فقد كانوا يعرفون صوتي ويعلمون أني لا أنهق بهذه الطريقة إلا في الأعياد والمناسبات العظيمة ، فأطلوا من النوافذ أو رفعوا رؤوسهم من الحقول .

وبعد قليل تجمع حولنا حشد كبير من الناس ، صغير وكبير ، خادم وسيد ، وكان أوغست وسط حلقة يسألونه ماذا أصابه وقد سدوا أنوفهم لا يجرؤن على الاقتراب منه ، وجاءت الجدة فأبعدتهم عن طريقها وصاحت :

– يجب أن يغتسل هذا الصبي المسكين .

وقال أبو بيير :

– وأي حمام ينظفه ؟

قالت الجدة :

– سأهتم به والحمد لله لأنه لم يصب بجروح أو كسور ، تعال يا بني سنمضي إلى البحيرة لتنظف جسمك من الوحول ، ثم أغسل جسمك بالماء والصابون ، فماء البحيرة دافئ في هذا الفصل من السنة ، وسوف يعيرك بيير بعض ملابسه .

وهرولت وراءهم إلى البحيرة أتفرج على هذه العملية التي كانت طويلة وشاقة ، فقد كان الوحل شديد اللزوجة يلصق بشعر أوغست وجلده وتحت أظافره .

بعد نصف ساعة من الفرك والدعك والآلام خرج أوغست من الماء يرتجف برداً وخجلاً ، وطلب منهم أن يسارعوا في مساعدته ليصل إلى بيتهم قبل أن يعلم أبوه بالحادثة .

وكان الجميع يتساءلون عن أسباب هذه الحادثة ، فضحك بيير وهو يقول :

– لقد سقط أوغست مرتين ، وفي كل مرة كان كاديشون سبباً في سقوطه ، في المرة الأولى أزعج الحصان القزم وعضه من ذيله حتى

ركله ، فسقط أوغست على ظهره ، وفي المرة الثانية لم نكن شهوداً عليها ولكن أظنها تابعة للأولى ، ولا بد أن يكون لكاديشون حافز فيها ، فهو يكره أوغست ويحقد عليه .

وسألت مادلين :

– وكيف عرفت أنه يكرهه ؟

– لقد تبدلت ملامح كاديشون حينما رأى أوغست في المزرعة ، وكان يرشقه بنظرات قاسية لم ألمحها من قبل ، ولا يتوجه بها إلى الأطفال الذين يلعبون معه ، ولم تكن نظرات حمار بل نظرات شيطان شرير .

ثم سألني وهو يحدق في عيني :

– أليس كذلك يا كاديشون ؟ إنك تكره أوغست وقد تعمدت إلقاءه على الأرض ، وهذا عمل شرير لا بد أن تتوب عنه .

وأحسست بالندم على فعلتي فنهقت نهيقاً حزيناً .

قالت كاميل :

– كاديشون حمار ذكي ، وأظنه يفهم كل ما نقوله .

ونظرت إليها نظرات حانية ، فاقتربت منها ووضعت رأسي على كتفها فقالت :

– إنك تصبح أكثر ميلاً إلى الشر يوماً بعد يوم ، وهذا أمر مؤسف لأنه ينقص من حبنا لك ، وكم تمنيت لو أنك تستطيع الكتابة لكتبت لنا قصصاً رائعة ، وكم تمنيت لو تكتب مذكرات حمار .

هنري :

– ما هذا القول السخيف ؟ كيف تريدين من كاديشون الحمار أن يكتب مذكراته ؟

كاميل :

– إن كاديشون لا يشبه سواه من الحمير ، فهو حمار نسيج وحده .

هنري :

– كل الحمير سواء ، وحسناً تفعل إذ تشابهت لأنها ليست سوى حمير .

كاميل :

– هناك فرق بين حمار وحمار .

هنري :

– هذا لا يمنع من أنك حين توجهين الإهانة إلى إنسان تقولين : غبي كالحمار ، وجاهل كالحمار ، وعنيد كالحمار ، ولو قلت لي :

إنك يا هنري حمار لغضبت لأني أعد هذا إهانة لي .

كاميل :

– أنت على صواب ، ولكني أحس وأرى أن كاديشون يفهم كثيراً من الأشياء ، وأنه يحبنا وأن له ذكاء وقاداً ، ثم لا تنس أن الحمير حمير لأننا نعاملهم كالحمير أي بقسوة ، ولذلك فهم لا يحبون سادتهم ولا يتفانون في خدمتهم .

هنري :

– إذن تظنين أن كاديشون اكتشف اللصوص بذكائه ومهارته ، وأنه قد فعل أشياء رائعة ؟

كاميل :

– حتماً لأنه وجّه ذكاءه إلى فعل الخير ، فاستطاع أن يقبض على اللصوص ، وإلا فما الذي يدفعه إلى ذلك في رأيك ؟

هنري :

– أظنه رأى رفاقه يدخلون في سرداب الأقبية فأراد اللحاق بهم .

كاميل :

– طيب ، وقضية الحمار العالم ؟

هنري :

– فعلها بدافع الحسد وحب الشر .

كاميل :

– وسباق الحمير ؟

هنري :

– هذا غرور الحمير .

كاميل :

– والحريق حينما أنقذ بولين ؟

هنري :

– بالغريزة .

كاميل :

– اسكت يا هنري ، لقد نفد صبري !

هنري :

– إني أحب كاديشون فعلاً وأعتبره حماراً وحسب ، وتظنينه عبقرياً ، ولئن كان ذكياً بارعاً فهو شرير كريه .

كاميل :

– وكيف ذلك ؟

هنري :

– لقد منع الحمار العالم وسيده من كسب لقمة العيش ، وحرمهما من النقود الضرورية لذلك ، وأساء إلى أوغست وأهانه دون سبب ظاهر ، وما زال يركل إخوته من الحمير حتى أبغضوه وتمنوا موته .

كاميل :

– إن ما تقوله صحيح ، وكنت أتمنى لو أن كاديشون يميز بين الحق والباطل وبين الخير والشر ، ولكنه حمار كما يبدو .

وابتعدا وتركاني أفكر فيما قالاه عني ، لقد كان ما قاله هنري صواباً إذ كنت متكبراً أعماني الغضب وحب الانتقام .

الفصل الرابع عشر
العقوبة

بقيت وحدي حتى المساء ، ولم يأت أحد لزيارتي ، وشعرت بالسأم فتمشيت قليلاً حتى رأيت الخادمات جالسات قرب الباب يتبادلن الأحاديث ، فوقفت قريباً منهن .

قالت الطابخة :

– لو كنت مكان سيدتي لتخلصت من هذا الحمار .

الخادمة :

– لقد أصبح شريراً يُخشى أذاه ، أرأيتم ما فعل بأوغست ، لقد كاد يقتله أو يميته غرقاً .

الخادم :

– ورأيتم كيف بدا عليه الزهو والافتخار ، فكان يقفز وينهق كأنما فعل شيئاً يشكر عليه .

السائس :

– سيدفع ثمن فعلته ، وسوف أضربه ضرباً مبرحاً يعوضه عن عشائه .

الخادم :

– احذر أن تراك السيدة .

السائس :

– وكيف ستراني ؟ أتعتقد أني سأضربه بالسوط تحت بصر السيدة ؟ سأنتظره في الزريبة .

الخادم :

– قد تنتظر وقتاً طويلاً ، لأن هذا الحيوان يفعل ما يحلو له ، فلا يدخل إلى الزريبة إلا متأخراً .

السائس :

– سترى كيف سيدخل مبكراً وينال مني عقوبة لن ينساها دون أن يدري بي أحد .

الخادمة :

– كيف ستفعل إذا نهق الحمار بأعلى صوته ، فتستيقظ المزرعة كلها ؟

السائس :

– سأكتم أنفاسه ، فلا يكون قادراً على الشهيق ولا النهيق .

وشعرت بالغضب يسيطر عليّ ، فكدت أهجم عليهم واحداً تلو

الآخر ، ولكني خشيت ان يشكوني مجتمعين ، فتأخذ سيدتي برأيهم وتطردني من المزرعة .

حينما كنت أداول الفكرة في رأسي لفتت الخادمة أنظارهم إلى عيني اللتين تقدحان الشرر .

هز السائس رأسه ودخل المطبخ ثم خرج منه وتظاهر بأنه يتجه نحو الزريبة ، وما إن اقترب مني حتى رمى الأنشوطة في رقبتي وجعل يشدها وأنا أقاومه ، وصار كل منا يتجه إلى ناحية حتى أحسست بأنفاسي تتقطع ولا أقدر على التنفس ، فاضطرني إلى السير وراءه لئلا أموت .

جرني حتى الزريبة وقد سبقه الخدم إليها ، ففتحوا له الباب وأمسك سوطاً وجعل ينهال عليّ دون شفقة ولا أحد يمنعه عني ، فنهقت ورفست ، فلم يسمعني أحد والسائس يتقاضى مني ثمن الأعمال الشريرة التي ارتكبتها .

وتركني أخيراً في حالة من الألم والمهانة لا توصف .

فهذه أول مرة منذ دخولي هذه المزرعة أضرب بالسياط وأتعرض للهوان ، وفكرت فعرفت أني جلبت لنفسي هذه العقوبة .

ومن الغد رأيت السائس واقفاً بالباب فكدت أعضه من وجهه ،

ولكن سيطرت على نفسي خشية أن أطرد من المزرعة .

توجهت نحو البيت فرأيت الأطفال مجتمعين يثرثرون ويلعبون ، قال بيير حين رآني :

– هاهو كاديشون الشرير فلنطرده قبل أن يعضنا أو يؤذينا كما فعل بأوغست .

كاميل :

– ماذا قال الطبيب لأبي منذ قليل ؟

بيير :

– قال إن أوغست يهذي من الحمى ، وقد اشتد به المرض .

جاك :

– ما معنى الهذيان ؟

بيير :

– الهذيان هو حين ترتفع حرارة الإنسان ولا يدري ما يقول ولا يتعرف على أحد ويتخيل أنه يرى أشياء كثيرة لا وجود لها .

لوي :

– وماذا يتخيل أوغست ؟

بيير :

– يتخيل أنه يرى كاديشون وهو يرتمي عليه ليعضّه ويدوس بحوافره ، والطبيب قلق عليه ، وقد ذهب أبي وأعمامي ليروه .

مادلين :

– كيف يجرؤ كاديشون الخبيث على رمي أوغست في الحفرة ؟

فقال جاك وهو يلتفت إليّ :

– نعم إنه خبيث ولا نحبه .

وردد الأطفال وراءه :

– نعم لا نحبه ولا نريده بيننا .

وشعرت بخيبة أمل لا توصف ، حتى جاك الصغير الذي أحببته من كل قلبي يطردني من بيته .

فابتعدت بخطوات بطيئة ثم التفت فألقيت نظرة حزينة على الأطفال . فإذا جاك يجري نحوي ويمسك رأسي بين يديه قائلاً :

– كاديشون إننا لا نحبك في الوقت الحاضر ، ولكن إذا بدلت سلوكك وأصبحت حماراً حسن الأخلاق فسوف نحبك كما كنا من قبل .

وهتف الأولاد :

– مستحيل أن نحبه كما في السابق ، فهو شرير لا يتخلى عن

عاداته .

فقال جاك :

– أرأيت يا كاديشون كيف يكرهك الناس حين تكون شريراً ؟ ولكنك إذا توقفت عن أعمال الشر فسوف أحبك كما كنت من قبل .

هنري :

– احذر يا جاك لا تقترب منه وإلا عضك أو رفسك .

جاك :

– أنا واثق أنه لا يعضنا ولا يرفسنا .

هنري :

– ولم لا ، ألم يطرح أوغست أرضاً ؟

جاك :

– هذه قضية مختلفة لأنه لا يحب أوغست .

هنري :

– ولم لا يحب أوغست ؟ ماذا فعل له ؟ قد يأتي يوم يكرهنا فيه أيضاً .

لم يجبه جاك لأنه لا شيء لديه ليقوله ، ولكنه هز رأسه والتفت

نحوي ومسد على شعري بحنان حتى انسكبت الدموع من عينيّ ، فقد تخلى عني الجميع إلا هذا الصغير ، ولأول مرة في حياتي فكرت بالتوبة الصادقة ، وأقلقتني حالة أوغست فقد ساءت حتى خشي الطبيب على حياته ، وقد زاره الأطفال جميعاً ثم عادوا يتداولون الرأي حول صحته :

بيير :

– إن حالته سيئة ، ولكنها أحسن مما كانت عليه بالأمس!

هنري :

– إن أباه البائس يبكي من الحزن ، وهو يدعو الله أن يشفيه ويتمنى لو يفديه بكل ما يملك ، إن حالته تدعو إلى الرثاء .

إليزابيت :

– فلنرفع أيدينا إلى السماء نسأل الله الرحمن الرحيم أن يمنّ عليه بالشفاء العاجل ، أليس كذلك يا أصدقاء ؟

فأجابها الجميع بصوت واحد :

– استجب دعاءها يا رب العالمين .

مادلين :

– أوغست البائس ! هل سيموت ؟

كاميل :

– إذا مات أصيب أبوه بالجنون لأنه ليس لديه ولد غيره .

إليزابيت :

– أين أم أوغست ؟ فنحن لم نرها أبداً .

بيير :

– لقد توفيت منذ عشر سنوات .

هنري :

– والغريب أن أمه المسكينة قد توفيت أثناء نزهة في البحيرة .

إليزابيت :

– وكيف حدث هذا ؟ هل غرقت ؟

بيير :

– لا ،فقد أنقذوها فوراً ، ولكنها أصيبت ببرد شديد ، وانتابتها الحمى والهذيان مثل ولدها أوغست ، وتوفيت بعد ثمانية أيام .

كاميل :

– يا رب ، يا رب الطف بنا ، وجنّب أوغست هذا المصير !

إليزابيت :

لذلك يا إخوتي أدعوكم إلى المحافظة على الصلوات والدعاء إلى

الله العليّ القدير لكي يحقق ما نرجوه ويجنبنا ما نخشاه .

مادلين :

– ولكن أين جاك ؟

كاميل :

– كان هنا منذ قليل ، لعله ذهب إلى البيت .

لم يذهب الطفل المسكين إلى البيت بل كان جالساً وراء صندوق ووجهه بين يديه يبكي ويسأل الله الشفاء لأوغست .

وكم كان حزني شديداً لأني تسببت في كل هذه الآلام لأبي أوغست وأصدقائه وللصغير جاك ! وما كان عليّ أن أحاول الانتقام لصديقي الكلب ميدور ، وساءلت نفسي :

– ماذا أفاده سقوط أوغست وهل أعاده إليّ ؟ وهل عاد عليّ الانتقام بغير الخوف والكراهية .

وانتظرت بنفاد صبر أخبار أوغست ، ومن الغد جاء جاك ولوي فربطاني إلى العربة الصغيرة للذهاب إلى زيارته ، وحين وصلنا وجدنا الخادمة تجري لاستدعاء الطبيب الذي قال لنا إن أوغست قد أمضى ليلة سيئة . وقد أصيب بهيجان أرعب أباه .

وانتظر جاك ولوي خروج الطبيب من غرفته ، وبعد ساعة خرج

فسألاه :

– حسناً ، دكتور تودو كيف حالته ؟

دكتور تودو :

– لا بأس عليه إن شاء الله .

لوي :

– أليس الهيجان شيئاً خطيراً ؟

دكتور تودو :

– لا ، إنه توتر عصبي ، وقد أعطيته بعض الحبوب المهدئة .. حالته ليست سيئة .

جاك :

– ألست قلقاً عليه يا دكتور ؟ ألا تظن أنه سيموت ؟

دكتور تودو :

– لا ، ليست حالته خطيرة على الإطلاق .

لوي وجاك :

– إني فرح ، شكراً لك دكتور تودو ، مع السلامة ، سنعود بسرعة لنطمئن أولاد وبنات عمنا .

دكتور تودو :

– هل هذا الحمار الذي أراه هو كاديشون ؟

جاك :

– نعم إنه كاديشون .

دكتور تودو :

– إذن حذار ! فقد يرميكم في حفرة كما فعل بأوغست ، وقولوا لجدتكم إنه من الأفضل لها أن تبيعه فهذا حيوان خطير .

وحياهم الدكتور تودو ومضى ، وبلغ بي الخجل والهوان درجة أني لم أسمع أصدقائي الصغار وهم يقولون :

– هيا يا كاديشون ، امش يا كاديشون ، تأخرنا يا كاديشون .

وتنبهت أخيراً فجريت إلى البيت حيث كان بانتظارنا أولاد العم وبنات العم والأعمام والعمات .

هتف جاك ولوي " إنه أحسن " وأعادوا ما سمعوه من الدكتور تودو ، ولم ينسوا نصيحته الأخيرة إلى الجدة .

انتظرت بفارغ الصبر قرار الجدة ففكرتْ لحظة ثم قالت :

– الأكيد يا أولادي أن كاديشون لا يستأهل ثقتنا وأنصح الصغار منكم ألا يمتطوه ، وإذا ارتكب أي حماقة بعد الآن فسوف أبيعه لصاحب المطحنة الذي يستخدمه في حمل أكياس الطحين ،

ولكني أترك له الفرصة قبل أن أسوقه إلى حياة الهوان ، ولعله يحسّن أخلاقه ، سنرى خلال عدة شهور ..

لا أستطيع التعبير عن حزني وخجلي وندمي ، ولكن الأذى الذي سببته لا يمحوه سوى الصبر والإحسان ومرور الأيام ، لقد بدأت أقاسي من كبريائي وشدة إعجابي بنفسي .

يوماً بعد يوم تحسنت صحة أوغست وتماثل للشفاء ، ولم يعُد أحد في القصر يتحدث عن حالته ، ولكنهم لم ينسوا ما حدث له فكانوا يرددون :

– حذار من كاديشون ، ولا تنس أوغست ..

الفصل الخامس عشر

التوبة

منذ أن جريت بأوغست تحت الأغصان فأصابت الجروح وجهه ثم رميته في حفرة المجاري حدث انقلاب واضح في معاملة الناس لي سواء كانوا كبار السن أو صغاراً من سكان المزرعة أو الجيران .

وحتى الحيوانات تغيّر سلوكها نحوي ، فكانت تتجنبني وتبتعد عني إذا دنوت بقربها .

وفقدت حب الناس والحيوان وعطفهم وحنانهم ، وساءت نفسي والحزن يعصف بي .

ماذا أفعل ؟ لو استطعت الكلام لذهبت إليهم وأعلنت توبتي على الملأ ، ولطلبت منهم الغفران لما فعلته من آثام وشرور ، ولعاهدتهم على أن أكون طيباً وديعاً في مستقبل الأيام ، ولكن كيف يفهمون قولي ولساني لا ينطق بالكلام ؟

فارتميت على العشب أبكي لا بدموع تسيل على الخدين كالبشر بل بدموع القلب التي لا يطلع عليها إنسان .

وكنت صادق التوبة .

لو كنت طيباً بدل أن أظهر ذكائي ، لأبديت للناس طيبة قلبي وصبري على المشاق ، وكيف تكون شجاعتي لو أبديت لهم من الإخلاص والشجاعة ما أبديت للصغيرة بولين ؟

وبعد صراع طويل للخير والشر في داخلي تغلبت نوازع الخير وعزمت على أن أفعل ما بوسعي لاستعيد صداقة السادة والخدم والحيوانات وكل من فقدت صداقته بحماقتي .

لقد اشترى أصحاب المزرعة منذ حادثة أوغست حماراً صغيراً يركبه الأولاد وحدهم ، أما الفتيان فلم يكونوا يخشونني ، وحينما يُقام سباق الحمير في الغابة كان جاك وحده يطلبني ، وكانوا من قبل يتهافتون على امتطاء ظهري .

وكنت أحتقر هذا الحمار الصغير الذي اشتروه ، وفي السباق إن حاول تجاوزي أضربه أو أعضه ، فكان البائس يترك لي المكان الأول وينفذ أوامري .

وحينما نعود مساء نصل إلى باب الزريبة في وقت واحد ، ولكنه كان يتركني أدخل قبله خوفاً مني ، ولكن يحدث أحياناً أن أصل قبله ، فأدعوه إلى الدخول فيتردد المسكين ، ولكنه يطيع أوامري ، وما كنت أفعل هذا تهذيباً مني ، بل لأركله أو أعضه حين يمر بجانبي ،

وأما اليوم فقد عزمت على أن أبدأ بتبديل سلوكي معه ، ودهش أشد الدهشة حين رآني أمام معلفي لا أسرق تبنه ولا ألوث سطل مائه ، فقلت له :

– يا أخي ، لقد كنت سيئ الخلق معك وسوف أحسن أخلاقي ، وكنت متعجرفاً وسوف أتعلم التواضع ، وكنت أحتقرك وسوف أعاملك بما يليق بك من احترام ، فاغفر لي ما سلف ، وسوف أكون صديقك الوفي ما جمعتنا زريبة .

فأجاب الحمار والفرح يطير به :

– شكراً لك يا أخي ، لقد كنت تعيساً وسأغدو سعيداً ، وكنت حزيناً وساصير مرحاً ، وكنت وحيداً وسأجد الرفقة والحماية ، ولا أطلب منك سوى أن تحبني لأني ماكرهتك أبداً .

قلت له :

– وأقول لك يا أخي إني كنت شريراً فسامحتني ، وأصلحت أخلاقي فحسن تقبّلك لي ، وأحببتك فقابلتني بأضعاف حبي لك ، فشكراً لك يا أخي .

وكنا نتناول العلف ونتسامر ، وكانت أول مرة أبادله فيها الحديث ، إذ كنت أحس بالمهانة إذا كلمته ، ولكني وجدته أفضل

مني وأكثر حكمة واتزاناً، فطلبت منه أن يعينني على السير في طريق الصلاح فوعدني بكثير من الحزم والتواضع ، وكانت الخيول تصغي إلى حديثنا وهي تتبادل نظرات الدهشة وتتهامس فيما بينها فقال الحصان الأول :

– هذه إحدى مهازل كاديشون الذي يحاول أن يسخر بها من صديقه الطيب .

وقال الحصان الثاني :

– يا له من حمار طيب ، يجب علينا أن نحذره من كاديشون .

فقال الحصانُ الأول :

– لا تحذره أمام كاديشون فينتقم منا ، إنه حمار شرير .

وصدمت لهذه الانطباعات السيئة التي أخذتها الخيول عني ، وأما الحصان الثالث فلم يتكلم بل رفع رأسه عن معلفه وهو يرمقني بنظرات الفضول ، فنظرت إليه نظرة التواضع والاستسلام ، فلم يصدقني ولم يحول نظره عني .

تعبت من عمل النهار وشدة الحزن فرقدت فوق فراشي فلم أجده وثيراً مثلما هو فراش رفيقي ، وبدلاً من أن أغضب كعادتي قلت إن هذا عدل وصواب ، فقد كنت شريراً وهم يعاقبونني ،

ولحسن الحظ فإنهم لم يرسلوني إلى الطاحونة لأعمل فيها كحمار .

نهضت في الصباح على ضربة في خاصرتي من قدم السائس الذي نزع عني رسني وتركني طليقاً ، فوقفت أمام الباب فيا هول ما رأيت ! كان يمشط رفيقي وينفض الغبار عن حافريه ، ثم أحاط عنقه برسني الجميل ووضع على ظهره سرجي الجميل ثم توجه به نحو البيت ، فلحقت به وقلبي يقفز من الخوف لشدة حزني وأسفي ، ورأيت جاك يقترب من رفيقي ثم يركبه دون تردد ، وحين مر بجانبي قال لي :

– أرأيت يا عدو نفسك ! لقد منعني أبي من ركوبك ، وداعاً يا كاديشون ولا تنس أني أحبك .

وابتعد ببطء والسائس يقول له :

– حذار مسيو جاك لا تقترب من كاديشون ، إنه حمار شرس يعض ويرفس فلا تأمن منه .

فأجابه جاك :

– لم يكن شريراً معي ، ولن يكون أبداً .

وضرب السائس الحمار فابتعدوا عن ناظري ، إن من اشتهر بعمل الشر يستحيل عليه أن يقنع الآخرين بأنه تاب عن هذا العمل .

فجريت على غير هدى وما زلت أهرول مبتعداً وأنا أكر وأقفز

فوق الحفر وأعبر الجداول حتى وقفت أمام جدار لا أستطيع هدمه ولا القفز فوقه .

نظرت حولي أين أنا ؟ وأحسست أني أعرف المنطقة ولكني لا أستطيع تحديدها ، فما زلت أمشي بقرب الحائط حتى أجد مدخلاً وراءه والشمس ترسل أشعتها المحرقة فوقي .ثم وقفت مدهوشاً فزعاً ، لقد كنت على خطوتين من قبر بولين فهتفت لها :

– بولين يا حبيبتي الصغيرة ! لقد أحببتني لأني كنت طيباً معك وأحببتك لأخفف عنك وحدتك ، وحين فقدتك وجدت سادة آخرين لا يقلون عنك طيبة وحناناً ، وكنت سعيداً بينهم ، ولكن كل شيء تحول حينما غرّني ذكائي وحبّي للظهور ورغبتي في الانتقام ، ولا أحد يحبني الآن ، وإذا متُّ فلن يأسف علي أحد ، وبكيت في أعماقي وأنا ألوم نفسي على ما قدّمت من سيئات ، وحينئذٍ لمعت أمام عيني فكرة أعادت إلي الأمل ، إذا أصررت على فعل الخير مثلما أصررت على فعل الشر من قبل فسوف يتنبه جميع أصدقائي إلي ويرجعون إلى حبهم لي وعطفهم علي وخاصة جاك الصغير .

ولكن كيف أبيّن لهم أني تغيرت وتبت عما سلف مني ؟ حينما كنت أقلب هذه الأفكار في رأسي سمعت قرب الجدار صوت رجل

يخاطب ولده ويقول :

– لا تبك فالدموع لا تشبع جوعك وليس معي شيء أعطيه لك فماذا تريدني أن أفعل ؟ وهل تظن معدتي مملوءة وأنا الذي لم أذق الطعام منذ صباح الأمس .

– إني متعب يا أبي .

– لنسترح هاهنا في ظل الحائط ثم نرى ما يكون .

ونظرت إلى مصدر الصوت فإذا هو ذلك البائس مدرب الحمار العالم ميرليفلور وزوجته وولده ، وكان يبدو عليهم البؤس والحرمان والجوع ، لمحني الرجل فدهش ثم قال :

– إذا لم يخب ظني فهذا هو الحمار الخبيث الذي أفسد علي معرض (لايغل) وحرمني أكثر من خمسين فرنكاً ، أيها الملعون لقد تسببت في مقتل حماري تحت أقدام الجمهور وأضعت عليّ ما يكفيني شهراً كاملاً .

ونهض فاقترب مني ، فلم أهرب منه فقد أحسست أني أستأهل غضبه وحقده ، فقال مندهشاً :

– إنه ليس الحمار ذاته فهو لا يهرب مذعوراً .

ثم قال وهو يتفحص قوائمي :

– ياله من حمار قوي ، لو بقي معي شهراً واحداً لجمعت ما يكفينا لنستأنف عملنا وحصلنا على العيش الرغيد .

عزمت في الحال على المسير مع هذا الرجل عدة أشهر لكي أعوّضه عن الضرر الذي ألحقته به وأساعده على كسب لقمة العيش له ولعائلته .

سار فتبعته فلم يلحظني بادئ الأمر ، ثم تأكد أني لا أفارقه فطردني .

ثم ابتعد فقال :

– غريب أمر هذا الحمار ! مصرٌّ على اللحاق بي ، فلماذا لا أحقق له رغبته .

وصلنا إلى القرية فمضى الرجل إلى الفندق مباشرة وقال لصاحبه إنه لا يملك مالاً ولكنه مضطر للمبيت .

قال له صاحب الفندق :

– إن متسولي القرية يكفونني ولست بحاجة إلى الغرباء ، اذهب وابحث عن الصدقة في مكان آخر .

سارعت إلى الوقوف أمام صاحب الفندق فألقيت عليه التحية بعدة حركات أضحكته فقال للرجل :

– لديك حيوان لا بأس به فإذا فرجتنا على ألاعيبه كفلت لك الطعام والمبيت .

فقبل الرجل قائلاً :

– بكل سرور ، ولكن لا ينطق اللسان إذا كانت المعدة خاوية .

وهتف صاحب المطعم :

– تفضلوا .. تفضلوا .. مادلون أيتها العجوز ، أعطنا ثلاث وجبات ، ولا تنسي الحمار .

فتناولوا وجبة شهية من حساء وخضار ولحم وجبن ، وقدموا لي حزمة من التبن أكلتها بصعوبة من شدة حزني .

أعلن صاحب الفندق عن حضورنا في أنحاء القرية فغصّت الساحة بالناس ، وكان القلق بادياً على وجه سيدي الجديد لأنه لا يعرف ما هي إمكانياتي ، وهل تلقيّت تدريب الحمار العالم ، فجرب حظّه وهو يقول :

– سلّم على الحاضرين .

فسلّمت عليهم يميناً ويساراً إلى الخلف وإلى الأمام ، والتهبت الأيدي بالتصفيق .

قالت له زوجته :

– لعله لا يفهم ما تريد منه .

فقال لها بصوت هامس :

– لعله تدرب من قبل ، فالحمير العالمة شديدة الذكاء .

والتفت إلي وهو يناديني باسم حماره السابق :

– ميرليفلور عانق أجمل امرأة من الحاضرات .

نظرت يميناً ويساراً ، فرأيت بنت صاحب الفندق وهي فتاة جميلة خجولة لا تبدي محاسنها للناس ، جالسة في الصفوف الأخيرة ، فشققت طريقي وسط الحاضرين واتجهت إليها فوضعت شفتي على جبينها فضحكت ، هتف أحد المتفرجين :

– لقد علمته الدرس يا هتفر !

فرد صاحب الفندق :

– وحق الله لم أتوقع أن يفعل هذا !

قال سيدي الجديد :

– ابحث عن شيء هنا وأعطه إلى أفقر رجل في القاعة .

فأخذت رغيف خبز ووضعته أمام سيدي الجديد .

قال بعض الحاضرين :

– هذا حمار ذكي يحب الفقراء ويحسن إلى المحتاجين فاترك له

الخبز يا هتفر .

قال هتفر :

– لا ، هذا ليس داخلاً ضمن اتفاقنا .

قال سيدي :

– إنني فعلاً أفقر رجل بين الحاضرين ، ولم نأكل منذ صباح الأمس وهذا الخبز ثمنه قرشان .

قالت هنرييت هتفر ابنة صاحب الفندق :

– اترك له الخبز يا أبي وإن الله يحب المحسنين .

– أنت طيّبة القلب يا هنرييت ، ولو سمعت كلامك لتصدقت بكل ما نملكه .

– ولكن الله يبارك لنا في خبزنا ويزيد في رزقنا .

– إذن فليحتفظ بالخبز .

انحنيت أحييه ثم أخذت طاسة صغيرة حملتها بأسناني وتجولت على الحاضرين لكي أجمع بها صدقاتهم ، ولم أنته من جولتي حتى امتلأت الطاسة بالنقود ، فأفرغتها واستأنفت جولتي من حيث توقفت ، فتعالى الهتاف والتصفيق .

شعرت بالسعادة لأني كفّرت عما قدّمتْ حوافري من عمل

سيئ ، وبدا السرور على سيدي ، وأراد أن ينصرف ولكن الجمهور طالبه بعرض آخر غداً ، فوعدهم وهو في غاية الابتهاج .

حين خلوا بأنفسهم قالت الزوجة :

– شيء غريب أن نجد هذا الحمار العالم في المقبرة ، ثم يذهب معنا طائعاً لكي نكسب هذا القدر من النقود ، كم معنا من النقود الآن ؟

– لم أحسبها بعد ، خذي قبضة منها واحسبيها !

قالت المرأة بعد أن عدّتها :

– ثمانية فرنكات وأربعة قروش .

الرجل :

– وأنا معي سبعة فرنكات وخمسون قرشاً ، فكم المجموع ؟

المرأة :

– كم المجموع ؟ ثمانية زائد أربعة يساوي ثلاثة عشر ، وباليد سبعة فالمجموع أربعة وعشرون ، زائد خمسون ، فالمجموع ، حوالي ، ستين ..

الرجل :

– ستون فرنكاً ؟ مستحيل ! أنت لا تعرفين الحساب ، خذ

يا ولدي أنت ذهبت إلى المدرسة وتعلمت الحساب .

الولد :

– ما المطلوب يا بابا ؟

الرجل :

– عندي ثمانية فرنكات وأربعة قروش في ناحية ، وسبعة فرنكات وخمسون قرشاً في ناحية ثانية ، فكم المجموع ؟

الولد :

– ثمانية وأربعة تساوي اثني عشر ، ناقص واحد ، زائد سبعة تساوي عشرين ، زائد خمسين ، تساوي .. تساوي اثنين وخمسين ، ناقص اثنين ..

الرجل :

– يا غبي ! كيف يكون المجموع خمسين إذا كان بيدي الأولى سبعة وباليد الثانية ثمانية ؟

الولد :

– ومعك خمسون أيضاً يا بابا !

الرجل :

– خمسون يا بابا ! أقول لك خمسون قرشاً لا فرنكاً !

الولد :

– المهم أن المجموع خمسون !

الرجل

– خمسون من أي شيء يا غبي ؟ وإذا ضربتك خمسين ضربة ، فكم يكون المجموع ؟

الولد :

– المجموع دائماً خمسون .

الرجل :

– وهذه واحدة على الحساب ، يا حيوان !

وصفعه صفعة تردد صداها في أرجاء المكان ، وبدأ الولد يبكي ، وغضبت لهذا أشد الغضب ، فإذا كان الولد غبياً فليس هذا خطأه .

قلت لنفسي : " لا يستحق هذا الرجل ما أبديه نحوه من عطف ، وعنده الآن ما يكفيه للعيش ثمانية أيام ، وسوف أبقى معه غداً لتقديم العرض ، ثم أمضي إلى المزرعة فربما استقبلوني بترحاب .

مضيت إلى ناحية قرب النافذة ، وبدأت أرعى العشب على حافتي حفرة قرب الفندق ، ثم مضيت إلى الزريبة فرأيت عدة خيول أمام معالفها وقد شغلت أفضل الأماكن فانزويت ناحية أفكر بأمري ،

ولا أحد يعرفني فيعكّر صفوي ، وفي آخر النهار دخلت هنرييت هفتر إلى الزريبة تتفقد الحيوانات ، ولاحظتْ أن زاويتي رطبة لا فراش فيها ولا تبن ، فنادت أحد السُّواس وقالت له :

– فردناند ، هات حزمة قش لهذا الحمار البائس لئلا يرقد على الأرض الرطبة ، وضع أمامه بعض الشعير وحزمة من التبن ، واسقه إن كان عطشاً .

فردناند :

– يا آنسة هنرييت ، إنك تبالغين في العطف على المخلوقات ، وماذا يهمك إن رقد هذا الحيوان على التراب أو على القش اليابس ، هذا تبذير !

هنرييت :

– وحين أعاملك بالحسنى ألا تكون مسروراً يا فردناند ؟ يجب أن نرأف بالحيوان رأفتنا بالإنسان .

فردناند

– ولكن الإنسان جدير بالعطف أكثر من الحيوان .

هنرييت :

– إن الإنسان والحيوان مخلوقات الله التي أمرنا بالعطف عليها

وتقديم العون لها .

فردناند :

– والله إنك ذكية مثل القردة .

هنرييت :

– شكراً لهذا المديح ، وهل تعني أي قردة ؟

فردناند :

– عفواً يا آنسة هنرييت ! لقد أسأت التعبير ، فأنت لست قردة بل أنا الحمار .

هنرييت :

– لا ، لست حماراً ولكنك ثرثار يحرك لسانه ، وكان يجب أن تحرك يديك ، هيا اعتن بهذا الحمار كما طلبت منك .

وخرجت ، فتأفف فردناند ولكنه فعل ما أمرت به سيدته ، فهيأ لي فراشاً من العشب ، ورمى لي بحزمة من التبن وحفنة من الشعير ، وقرب إلي سطل الماء ، وضربني ضربتين بمجرفته وذهب .

لم أكن مربوطاً وأستطيع الذهاب إذا شئت ، ولكني فضلت البقاء إلى الغد كي أكمل إحساني إلى الرجل ، وأقاسي قليلاً في هذه الزريبة ، لعلني أتعلم شيئاً من التواضع .

في ضحى الغد ، جاء سيدي فساقني إلى ساحة كبيرة تغص بالمتفرجين ، وكان منادي القرية يقرع الطبلة منذ الصباح معلناً عن الاستعراض الكبير للحمار العالم المدعو ميرليفلور ، وسيكون الاجتماع الساعة الثامنة مساءً مقابل مبنى البلدية .

كررت ألعاب البارحة ، وأضفت إليها بعض الرقصات المبتكرة كرقصة " الفالس " ورقصة " البولكا " ودعوت فردناند إلى الرقص بنهيق مرتفع وقدمت أمامه حافري كأنه يد فتاة جميلة ، ورفض بادئ الأمر ، ولكن الجميع صاحوا :

– هيا ارقص رقصة الحمار .

فانطلق يرقص وأنا أدور وراءه أقلده .

حين نال مني التعب ذهبت أبحث عن طاسة مثل البارحة فلم أجدها .

فأمسكت سلة بأسناني ودرت بها على المتفرجين ، وسرعان ما امتلأت ، فأفرغتها عدة مرات ، ولما وجدت أن الجميع قد دفعوا ما استطاعوا رفعت لهم حافري بالتحية وانصرفت .

انتظرت حتى حسب سيدي النقود فكانت ثلاثة وأربعين فرنكاً وهي كافية له ، فعزمت على الرجوع إلى المزرعة ، وفي تقديري أني

كفّرت عن سيئاتي القديمة ، فسلّمت على سيدي واختفيت بين الجمهور . قال هفتر :

– ها هو حماري يمضي !

فالتفت إلي سيدي المزعوم ونظرُ إلي نظرة قلقة وهو ينادي :

– ميرلفلور ، مير لفلور !

ووجدني جاداً في سيري مبتعداً عنه ، فصاح مستغيثاً :

– أمسكوه ، أمسكوه أرجوكم ، إنه يحمل معه خبزي وحياتي ، أمسكوه وأعدكم بعرض آخر إذا أعدتموه إلي .

قال له رجل يدعى " كلويه " :

– من أين حصلت على هذا الحمار ؟ ومنذ متى ؟

قال سيدي المزعوم :

– هو لي ، وكفى .

فهتف به كلويه :

– حسناً ، ولكن منذ متى وهو لك ؟ أظنه حمار المزرعة المدعو كاديشون .

وبخفة انفلت سيدي من بين الجمهور وجرى بأقصى سرعته ، ولم يتبعه أحد لأنه لم يسرق منهم شيئاً ، وإنما تصدقوا عليه بملء إرادتهم .

وقال بعضهم :

– نحن نعرف كاديشون ، فليس من السهل أن يسوقه أحد رغماً عنه ، ولا بد أنها إحدى ألاعيبه .

تفرق الناس ومضى كل إلى شأنه ، واستأنفت ركضي أملاً في الوصول إلى المزرعة قبل حلول الظلام ، ولكن الطريق طويلة وأنا مرهق ، فآثرت الاستراحة على مسافة ميل من القصر ، لقد غابت الشمس ولا ريب أن الزرائب مغلقة ، فعزمت على النوم قرب غابة صغيرة يجري بجانبها جدول صغير .

ما كدت أستلقي على فراش من الأعشاب حتى سمعت خطوات حذرة وهمساً خفيضاً ، وحدقت فلم أر شيئاً ، فالليل شديد السواد ، فأرهفت أذني الطويلتين وسمعت المحاورة التالية ..

الفصل السادس عشر

اللصان

– لم يتقدم الليل كثيراً يا " فينو " ! ومن الأفضل الانتظار في هذه الغابة .

فقال فينو :

– لكن يا " باس بارتو " ، يلزمنا بعض النور كي نتعرف على المكان ، ولم أدرس المدخل جيداً .

فقال باس بارتو :

– أنت فاشل في الدراسة طول عمرك ، ولا تستحق اسم " فينو " بل " فاشلو " .

فينو :

– ولكن أنا الذي أقترح عليك الآراء الصائبة .

باس بارتو :

– الآراء الصائبة ؟ وماذا سنفعل في القصر ؟

فينو :

– ماذا سنفعل ؟ سنسرق المزرعة ، فنقطع رؤوس القنبيط

ونجمع اللوبياء والحمص واللفت والجزر ، ونقطف الفواكه ، هذا ما سنفعله .

باس بارتو :

– هذا حسن ، ولكن لننتظر قليلاً ثم نضع سلماً على السور ، وتبقى أنت بعيداً كي تحذرني إذا جاء أحد ، وأهبط أنا إلى الناحية الثانية ثم ترمي لي السلم وتأتي معي .

قال فينو :

– هذا حسن .

ثم تلفت حوله خائفاً وقال :

– ما هذا ؟ هل سمعت ؟

فقال باس بارتو :

– ومن يختبئ في الغابة سوى اللصوص ؟ قد يكون صوت ضفدع أو حركة بوم .

وجلسا ساكتين لا يتحركان ، وفكرت في وسيلة تمنعهما من دخول القصر ، وتُمكن من القبض عليهما ، فأنا لا أستطيع الاتصال بأحد ، ولا الدفاع عن مدخل المزرعة ، واكتملت في ذهني خطة ، فعزمت ألا أتحرك إلا بحذر لئلا ينتبها إلي .

كنت أعلم أنهما لا يستطيعان الجري سريعاً في الظلام ، فسلكت طريقاً مختصرة وأنا أقفز فوق السياج ، ووصلت قبلهما بزمن طويل أمام المزرعة ، وأعرف المكان الذي اختاروه للتسلل إليها ، فالتصقت بالجدار حتى لا يراني أحد .

بعد ربع ساعة من الانتظار ، سمعت وقع خطوات ثقيلة وهمساً خفيفاً ، واقتربت الخطوات بحذر ، بعضها يتجه نحوي وهي خطوات باس بارتو ، والأخرى تبتعد تجاه الناحية الثانية من السور قرب المدخل وذلك فينو .

لم أكن أراهما ولكني أسمعهما جيداً . وحينما وصل باس بارتو إلى الجدار المثقوب وسّع حجارته بحيث يتمكن من النفاذ فيه ، فمد قدميه ثم جعل يتلمس بيديه ، وكتمت أنفاسي وأنا أتخيل كل حركة من حركاته ، وحين تدلى أمسكت قدميه بأسناني وجذبته إلى الأرض فتساقطت الحجارة فوقه ، وزدته ركلة قوية من حافري أفقدته صوابه .

وتربصت بصاحبه لأنه سيأتي باحثاً عنه ، وسرعان ما سمعت فينو يتقدم حذراً ، وكان ينظر إلى أعلى فلم ير صاحبه ممدداً على الأرض شبه القتيل ، فقال بصوت هامس :

– هيا ، هيا .. السلم ؟ هل أصعد ؟

ولم يسمع جواباً ، وكيف يجيبه صاحبه ؟

ولاحظت أنه لا رغبة له في التسلق ، وخفت أن يهرب فهجمت عليه وجذبته من قميصه فسقط على الأرض ، فركلته على رأسه ركلة صائبة مثل التي وجهتها إلى صاحبه فنام بجانبه ، ولم يعد لديّ ما أخشاه فرفعت صوتي بالنهيق ، وجريت إلى كوخ البستاني وإلى الزرائب وإلى القصر ونهيقي تتجاوب أصداؤه في الجهات الأربع ، فاستيقظ الجميع وخرج بعض الرجال يحملون البنادق والفوانيس ، فأسرعت إليهم وجريت أمامهم أرشدهم إلى مكان اللصين الممددين أمام الجدار .

قال أبو بيير :

– قتيلان ؟ ما معنى هذا ؟

أبو جاك :

– لم يموتا ، إنهما يتنفسان .

البستاني :

– وهذا يتلوى من الألم .

السائس :

– هذا دم ، إنه مصاب في رأسه .

أبو بيير :

– والآخر مصاب في رأسه أيضاً ، وكأنها رفسة حصان أو حمار .

أبو جاك :

– وهذا أثر حدوة حديد على جبهته .

السائس :

– وماذا يأمر سيدي ؟ ماذا نفعل بالرجلين ؟

أبو بيير :

– احملهما إلى البيت ، ثم خذ العربة وأحضر الطبيب ، سنحاول أن نوقظهما .

جاء البستاني بنقالة وحملوا الرجلين إلى قاعة تستخدم لحفظ البرتقال أثناء الشتاء ، ولكنهما لم يتحركا .

قال البستاني وهو يتفحص وجهيهما :

– لا أعرفهما .

وقال أبو لوي :

– هل معهما أوراق ؟ سنعلم أهلهما بوجودهما هنا .

جذب البستاني من جيوبهما بعض الأوراق وسكينين مشحوذتين وحزمة مفاتيح ، وأعطاها لأبي جاك ، فهتف قائلاً بعد أن تفحصها :

– آه ، معنى هذا أنهما جاءا ليسرقا أو يقتلا أحداً .

وقال أبو بيير :

– بدأت أفهم كل شيء ، وليس نهيق كاديشون عبثاً .. جاء هذان اللصان للسرقة ، فأحس بهما كاديشون فاشتبك معهما ، واستطاع التغلب عليهما بقوته المعهودة وذكائه الوقاد ، ثم أسرع إلينا ينادينا .

قال أبو جاك :

– هذا صواب ، لقد قام كاديشون بعمل بطولي ، وهذا يغفر له كل ذنوبه السابقة .. تعال يا كاديشون ، فقد عفوت عنك .

واستبد بي الفرح فكنت أروح وأجيء أمام الجميع ، على حين كانوا يقدمون الإسعافات لفينو وباس بارتو ، وما لبث الدكتور تودو أن جاء ، ولم يفق الرجلان من غشيتهما بعد . فحص الطبيب جرحيهما ، ثم قال :

– هذه ضربة محكمة التسديد ، لعلها ضربة حافر حمار .

وحين رآني أضاف :

– أليست هذه إحدى حماقات هذا الحمار الذي يتطلع إلينا كأنه يفهم ما نقول ؟

فأجاب أبو بيير :

– ليست إحدى حماقاته ، بل إحدى أعماله البطولية ، هذان لصان ، واسمع ما هو مكتوب في هذه الأوراق :

قصر " هيرب " ، كثير من الناس لا يصلح للسرقة ، المزرعة سهلة ، الحائط غير مرتفع .

" بروسبتر " ، قس هرم لا سلاح معه ، خادمته عجوز صماء ، يمكن سرقته أثناء تأدية الصلاة .

قصر "سورفال" ، صاحبه غائب ، امرأة وحيدة في الطابق الأرضي ، يصلح للسرقة ، اقتل إن صرختْ .

قصر " شانداي " ، كلاب حراسة يمكن تسميمها ، لا أحد في الطابق الأرضي ، أوان فضية ، مجوهرات ، اقتل إذا جاء أحد .

تأمل يا سيدي ، كيف أنك تعالج لصين لا يتورعان عن القتل ، سأبلغ الشرطة .

سرعان ما فتحا عيونهما وذعرا إذ رأيا هذا الحشد حولهما في غرفة من القصر ، وفتح أحدهما فمه ليقول شيئاً ، فصرخ به الدكتور

تودو :

– لا حاجة لي إلى خطبتك لأعرف من أنت وماذا جئت تفعل هنا .

وتفقد فينو جيوبه ثم نظر إلى باس بارتو وقال :

– لقد سرقونا يا صاحبي !

فقال له باس بارتو :

– أعرف أنك فاشل ، ولكني لا أعرف أنك مهرج .

فينو :

– ولكن لديهم الأوراق

باس بارتو :

– قل لهم إنها ليست لنا .

فينو :

– والسكينان ؟

باس بارتو : وكذلك السكينان ، لتكن عندك الجرأة ؟

فينو : ومن سدد إلى رأسك هذه الضربة كأنها ضربة مطرقة ؟

باس بارتو : ما سمعت شيئاً ولا رأيت .. وجدت نفسي على الأرض بلمح البصر .

فينو : يجب أن نعرف من الذي رآنا نتسلق الجدار .

باس بارتو : سنعرفه ، ألن يشهد علينا ليقول لماذا ضربنا ، وكيف ؟

فينو : حسن ، ولكن حتى ذلك الحين أنكرْ كل شيء ، لنتفق على تطابق أقوالنا لئلا يكذّب أحدنا الآخر .

قال أبو لوي : فرقوا بين الرجلين لئلا يطابقا بين أقوالهما .

فهجم عليهما الرجال وربطوا أيديهما وأرجلهما ورموا باس بارتو في حجرة أخرى .

في ساعة متأخرة من الليل ، وصل ضابط الشرطة ومعه أربعة من العناصر ، واطلعوا على السلاح والأوراق .

قال الضابط : لا يستعمل هذا النوع من السكاكين إلا اللصوص الذين لا يتورعون عن القتل ، وأظن أني أعرفهما من أوصافهما فهما فينو وباس بارتو وقد هربا من السجن ، وأصدرت الشرطة مذكرة بحث بحقهما ، لقد ارتكبا عدداً من السرقات الجريئة .

ثم التفت إلى الطبيب وسأله : هل تظن أن حالتهما تسمح لهما بالسير ؟

قال الطبيب : أظنهما قادرين على السير ، ولكن حالتهما الصحية لا تبشر بالخير ، فالضربة قاسية أتلفت الجمجمة ، وقد يموتان خلال ثلاثة أيام أو أربعة .

واحتار الضابط كيف يفعل ؟ فهو يؤدي واجبه ولا يريد أن يموت اللصان في الطريق ، ورأى أبو بيير حيرته فاقترح عليه نقلهما بإحدى عربات المزرعة .

حين وصلت العربة وضعوا كلاً من فينو وباس بارتو بين شرطيين ، وربطوا أيديهما وأرجلهما زيادة في الاحتياط لئلا يهربا .

وكان يرافق العربة شرطي على حصانه ، واختفى الجميع عن ناظريّ ، وبقيت وحدي أمام البيت أرعى العشب ، وأنتظر بفارغ الصبر نزهة سادتي الصغار ، وخاصة جاك المحبوب الذي اشتقت رؤيته ، ولعل هذه الخدمة التي أسديتها تكون كافية للتكفير عن الشرور السابقة كلها .

حين طلع النهار ، نهض الجميع وارتدوا ثيابهم ، وتسابق الأولاد يجرون نحوي يعانقونني باشتياق ، ولكن معانقة جاك كانت الأجمل بينهم جميعاً ، ثم قال : يا كاديشون الطيب ها قد عدت ، كنت حزيناً لفراقك ، ألا ترى كم نحبك يا كاديشون العزيز !

الفصل السابع عشر

المركب

بيير :

– ماذا نفعل اليوم لنلهو ؟

إليزابيت :

– حقاً ، إنه يوم الخميس ، ولدينا عطلة بعد الظهر .

هنري :

ما رأيكم أن نصيد سمكة في البركة الكبيرة ؟

ميل :

– فكرة جيدة ، سيكون عندنا طبق من السمك ليوم الغد ، يوم العرس ..

مادلين :

– وكيف نصيد ؟ هل عندنا صنارات صيد ؟

بيير :

– لدينا الكثير من الدود نستخدمه طُعماً ، ولكن ليس عندنا قصبة للصيد .

هنري :

– ما رأيكم أن نطلب من الخدم شراء بعضها من القرية ؟

بيير :

– لا يوجد في القرية منها ، ولا بد من الذهاب إلى المدينة وهي بعيدة .

كاميل :

– ها هو أوغست قد وصل ، ربما كان لديه قصبة صيد ، سيذهب لإحضارها على ظهر " البوني " .

جاك :

– وأنا أمضي معه على ظهر كاديشون .

هنري :

– لا يمكنك أن تذهب بعيداً وحدك .

جاك :

– ليس المكان بعيداً ، إنه على نصف ميل .

– أوغست (وقد وصل) :

– ماذا تريدون أن تجلبوا على ظهر كاديشون يا أصحاب ؟

بيير :

– قصبات الصيد ، هل لديك بعضها ؟

أوغست :

– لا ، ولكن لا حاجة للذهاب بعيداً لإحضارها ، سنصنع بالسكين ما شئنا من قصبات صيد .

هنري :

– نعم ، صحيح ، كيف لم نفكر في هذا ؟

أوغست :

– أسرعوا إلى الغابة واقطعوا بعض الأغصان ، هل معكم سكاكين ؟ معي واحدة في جيبي .

بيير :

– معي واحدة رائعة أهدتها لي كاميل .

هنري :

– وأنا أيضاً ، معي واحدة أهدتها لي مادلين .

جاك :

– وأنا أيضاً ، معي سكين .

لوي :

– وأنا أيضاً .

أوغست :

– لنذهب إلى الغابة ، فإذا قطعتم الأغصان فانزعوا قشورها .

سألت كاميل ومادلين وإليزابيت :

– ونحن ماذا نفعل بانتظاركم ؟

أجاب بيير :

– جهزوا ما يلزم للصيد : فتات الخبز والدود .

وانصرف كل منهم إلى مهمته .

توجهت نحو البركة الكبيرة وانتظرت أكثر من نصف ساعة حتى وصل الأطفال وهم يركضون وبأيديهم قصبات الصيد .

هنري :

– يجب أن نخبط الماء بأيدينا حتى تصعد الأسماك .

بيير :

– على العكس ، لا يجوز أن تحدث أدنى ضوضاء لئلا تغوص الأسماك إذا سمعت الأصوات .

كاميل :

– الأفضل أن نستدرجها بفتات الخبز .

مادلين :

– نعم ، ولكن لا تكثروا منه وإلا شبعت .

إليزابيت :

– انتظروا ، دعوني أتصرف ، جهزوا الطُّعم وأنا أرمي الفتات .

وما كادت إليزابيت ترمي ببعض الفتات حتى قفزت عدة سمكات فوق الماء ، فرمت المزيد من الفتات ، وجاء لوي وجاك وهنريت فرموا هم أيضاً حتى امتلأ ما حولهم بالخبز وشبعت الأسماك .

جاك :

ماذا يهم ؟ ستأكل الباقي منه هذا المساء أو غداً .

إليزابيت :

– ولكنها لا تريد أن تبتلع الطُّعم ، لقد شبعت .

جاك :

– لن يفرح أولاد عمنا بهذا العمل .

إليزابيت :

– لا تقولوا لهم شيئاً ، فهم مشغولون الآن بتحضير الصنارات ، وربما ابتلعت الأسماك بعض الطُّعم .

قال بيير :

– الصنارات جاهزة ، فلنرمها في الماء .

ورمى كل منهم صنارته وهو يأمل أن يصيد أكبر سمكة من أسماك البركة ، وانتظروا طويلاً ولكن الأسماك كانت قد شبعت من فتات الخبز ، فلم تلتفت إلى الطُّعم المعلق بطرف الصنارات .

أوغست :

– ليس المكان جيداً ، لنذهب أبعد من هنا .

هنري :

– لا أظن أن الأسماك ستأكل شيئاً ، فالفتات يطفو على سطح الماء .

كاميل :

– اذهبوا إلى نهاية البركة قرب المركب .

بيير :

– الماء عميق هناك .

إليزابيت :

– وماذا يهمك ؟ هل تخاف على الأسماك من الغرق ؟

بيير :

– أخاف أن يغرق أحدنا إذا سقط في الماء .

هنري :

– لن يغرق أحد ، فلن نقترب من الماء لئلا تنـــزلق أقدامنا فنسقط فيه .

بيير :

– ولكن لا أريد أن يذهب الصغار معنا .

جاك :

– أرجوك يا بيير ، دعني آتي معكم ، سأبقى بعيداً عن الماء .

بيير :

– لا ، ابقوا هنا ، سنعود سريعاً ، ولا أظننا سنجد أسماكاً أكثر من هنا ، وهذا خطؤكم إذا لم نجد أسماكاً هنا ، لأنكم رميتم الكثير من فتات الخبز ، ولن أقول للآخرين لئلا يغضبوا منكم ويعاقبوكم .

لم يصرّ جاك على الذهاب معه ، وحكى لأصحابه الصغار تهديد بيير لهم ، فظلوا في المكان وهم يأملون أن يصيدوا بعض السمك ، ولكنهم لم يصيدوا شيئاً .

مشيت وراء بيير وهنري وأوغست حتى جانب البركة ولم يصيدوا شيئاً ، فبدلوا مكانهم وغيروا نوع الطعم الذي يستخدمونه لعلهم يجتذبون الأسماك ، ولكن بلا جدوى .

قال أوغست :

– عندي فكرة جيدة ، بدلاً من الانتظار لنصيد سمكة أو سمكتين بهذه الصنارات ، لنعمد إلى الصيد الكبير الذي يوفر لنا عشرين أو ثلاثين سمكة دفعة واحدة .

بيير :

– وكيف نفعل لنصيد عشرين أو ثلاثين سمكة ؟ ونحن غير قادرين على اصطياد واحدة .

أوغست :

– نستخدم شبكة صيد .

هنري :

– ولكنها صعبة ، قال أبي إنها تتطلب مهارة .

أوغست :

– ليست صعبة ، وقد رميتها عشرين أو ثلاثين مرة .

بيير :

– وهل اصطدت الكثير من الأسماك ؟

أوغست :

– لم أصطد ، لأني لم أرمها في الماء .

هنري :

– كيف ؟ وأين رميتها إذن ؟

أوغست :

– رميتها فوق الأعشاب لكي أتمرن على استخدامها .

بيير :

– ولكن الأمر مختلف ، ولن تستطيع رميها فوق الماء .

أوغست :

– هل تظن هذا ؟ سترى كيف أرميها ، سأذهب لآتي بالشبكة .

بيير :

– لا ، أوغست أرجوك ، إذا حدث مكروه فسوف يعاقبني أبي .

أوغست :

– وماذا سيحدث ؟ أقول لك إن عائلتي معتادة على الصيد بالشباك ، انتظروني سأعود سريعاً .

وما لبث أن عاد وهو يجرّ شبكة صيد ، قال :

– ها هي ، و الآن حذار أيتها الأسماك !

رمى الشبكة بعيداً وبدأ يجرها بهدوء شديد .

قال بيير :

– اجذبها بقوة وإلا ضاع النهار .

قال أوغست :

– لا ، يجب أن تسحبها إليك بهدوء لئلا تتقطع خيوطها وتهرب الأسماك منها .

واستمر يجذبها حتى طواها كلها فإذا هي فارغة ليس فيها سمكة واحدة ، قال :

– هذه المرة الأولى غير محسوبة ، لا تيأسوا ، سنعيد التجربة .

ورماها من جديد ولم يصطد شيئاً ، فقال :

– أظنني قريباً جداً من الشاطئ والماء غير عميق ، سأصعد فوق المركب لأبتعد عن الشاطئ ، وأستطيع جذب شبكتي بسهولة .

قال بيير :

– لا ، لا تصعد فوق المركب ، قد تعلق شباكك بأطرافه ، وإذا جذبتها سقطت في الماء .

– ولكنك تتكلم مثل طفل ابن عامين ، وأنا أشجع منك .

صعد أوغست إلى المركب فكان يتمايل به ، وسيطر عليه الخوف ولكنه أخفاه تحت ابتسامة مصطنعة ، فبسط الشبكة ثم

رماها ، وكانت حركة المركب تزعجه ، ولم تمسك يداه بشيء ، ففقد توازنه وسقط داخل الشبكة ورأسه إلى أسفل وأطلق صرخة استغاثة قبل أن ينـــزلق إلى الماء ، وتبع صرخته صراخ الرعب الذي أطلقه هنري وبيير .

كانت الشبكة تمنعه من السباحة لكي يعود إلى الشاطئ ، وكلما حرك أطرافه تعقدت خيوط الشبكة حوله ، وأعاقت حركته .

فغاص شيئاً فشيئاً ولم يستطع بيير أو هنري مساعدته لأنهما لا يجيدان السباحة ، وكاد يموت غرقاً ، ولا أحد ينقذه .

لم أتلكأ ورميت نفسي في الماء ، وسبحت حتى وصلت إليه ، وغطست إلى أسفل تحت الماء وأمسكت الشبكة بأسناني وطفوت إلى أعلى ، ثم توجهت نحو الشاطئ وأنا أجذبها معي ، وما زلت أمشي حتى أوصلت أوغست إلى ناحية معشبة ، فتركته فوقها مستلقياً بلا حراك .

سارع هنري وبيير إليه وخلصاه من خيوط الشبكة ، ثم نظرا إلى كاميل ومادلين تهرعان إليهم ، فطلبا منهما إحضار النجدة .

كان الطفلان يمسحان الماء عن وجهه ويضربان خديه ضربات خفيفة لعله يستيقظ ، حتى جاء الخدم من ناحية البيت ، وحملوا

أوغست وهو مغمى عليه ، وبقي الأطفال معي .

هتف جاك :

– ما أروعك يا كاديشون ! فأنت الذي أنقذ حياته .. هل رأيتم كيف رمى بنفسه بكل شجاعة ؟

لوي :

– نعم ، وقد خاض في الماء لينقذ أوغست .

إليزابيت :

– وجذبه ببراعة حتى الشاطئ .

جاك :

– انظروا إليه إنه يقطر ماءً .

هنرييت :

– لا تلمسه يا جاك ، وإلا بللت ملابسك .

جاك :

– وماذا يهم إذا بللت ملابسي ، سأعانقه .

لوي :

– بدلاً من معانقته وتهنئته خذوه إلى الإسطبل لنجفف جسده الذي يرتعد ، ونعطيه بعض الشعير والتبن لعله يدفئ معدته .

جاك :

– صحيح ، هذا أفضل ، تعال يا كاديشون .

جين :

– وكيف نجفف هذا الحمار الكبير ؟

لوي :

– سنأخذ العشب اليابس ونمسح به جسده كله حتى يجف الماء عن جلده ، وبذلك لا يصاب بالبرد أو الزكام .

جين :

– وهل يصاب الحمار بالزكام ؟

لوي :

– طبعاً ، وخاصة كاديشون الذي يشبه الإنسان بذكائه ، في الإصطبل أجريت إحدى أعظم عمليات التجميل لحمار في المنطقة كلها .

وانصرف الأولاد إلى الاعتناء بي ، فأحدهم يجفف جلدي ، والآخر يمشط شعري ، والثالث يعتني بحوافري ، ثم مهدوا لي فراشاً وثيراً من العشب في ناحية جافة من الإصطبل ، وقدموا لي مكيالاً من الشعير .

قالت جين :

– أظنه أكل كثيراً هذا اليوم .

هنرييت :

– لا يهم ، لقد قام بعمل بطولي ويستحق المكافأة .

جين :

– أريد أن آخذ بعض الحشيش من أمامه .

هنرييت :

– ولماذا ؟

جين :

– لأقدمه إلى أرانبي التي تحب الحشيش .

هنرييت :

– إذا رآك جاك ولوي فسوف يوبخانك .

جين :

– سآخذه دون علمهما ، انتظري حتى يلتفتا .

هنرييت :

– ستكونين لصة لأنك تسرقين حشيش كاديشون المسكين .

جين :

– لا أريد أن أكون لصة ، ولكن أرانبي تحب الحشيش .

وقفت جين قرب معلفي ترقبني وأنا آكل .

وسألتها هنرييت :

– لماذا أنت واقفة هنا ؟ ألا تذهبين للاطمئنان على أوغست ؟

أجابت جين :

– لا ، سأبقى هنا حتى يكمل كاديشون طعامه ، فإذا بقي قليل من الحشيش أخذته إلى الأرانب ، وبذلك لا أكون لصة .

وأصرّت عليها هنرييت ، ولكن جين رفضت الذهاب مع بنات عمها . كنت آكل ببطء لأرى إن كانت جين ستقاوم الرغبة في إعطاء بعض الحشيش لأرانبها ، فكانت تنظر في المعلف حيناً بعد حين وتقول لنفسها :

– كيف يأكل ؟ ألا ينتهي أبداً ؟ لا بد أنه شديد الجوع ، عساه يترك لي حزمة واحدة فأكون سعيدة بها .

تظاهرت بالشبع وتوقفت عن المضغ ، وابتعدت عن المعلف والحشيش ما يزال وفيراً فيه ، فأطلقت جين صرخة فرح وقفزت في الهواء ثم أخذت حزمة من الحشيش وهي تقول لي :

– إنك طيب يا كاديشون ، إنك لطيف يا كاديشون ولم أر في

حياتي حماراً أفضل منك ، وأحسن ما فيك أنك لست شرهاً ، فالشراهة صفة سيئة ، وسوف يفرح الأرانب بهذا الحشيش ، وسأقول لهم إنه هدية منك .

ورأيت جين تجري مسرعة إلى قفص الأرانب وتحكي لهم عن كرمي ، وتقول لهم إني لم أكن شرهاً ، وإن عليهم أن يكونوا مثلي ، وأن يتركوا بعض الطعام لتنقره العصافير .

وقالت لهم :

– سأترككم وأعود بعد قليل لأرى إن كنتم طيبين مثل كاديشون .

ثم أغلقت باب القفص وجرت لتنضم إلى هنرييت ، فهرولت وراءها لأعرف أحوال أوغست ، فرأيته جالساً على العشب مع أصحابه وقد عادت إليه عافيته ولم يصب بأذى ، وحين رآني نهض واقفاً واستقبلني بين ذراعيه وهو يهتف فرحاً :

– هذا هو منقذي ، ولولاه لفارقت الحياة ، لقد أغمي علي ولكن كاديشون رمى نفسه في أعماق المياه وجذب الشبكة بأسنانه ، وفعل هذا كله لينقذني ، لن أنسى أبداً أنه أنقذ حياتي وأنا مدين له بها ، وكلما مررت بالمزرعة سأزوره لأطمئن عليه .

قالت الجدة :

– حسناً ، الآن أصبحت ولداً طيباً تعترف بالخير الذي يؤديه الإنسان كما تعترف بما يؤديه الحيوان ، وقد قررت ألا يفارقنا كاديشون ما دمت على قيد الحياة .

كاميل :

– ولكنك أردت منذ شهور إرساله إلى الطاحونة .

الجدة :

– لقد فكرت بإرساله إلى الطاحونة ولكني لم أفعل ، وكنت سأرسله لأنه آذى أوغست وكاد يموت بسبب حماقاته ، ولأنه لم يترك أحداً في المزرعة إلا أصابه الأذى من ألاعيبه ، وسيبقى الآن معنا ، وسأحرص على أن يعيش سعيداً .

قال جاك وهو يقفز فرحاً :

– شكراً يا جدتي ، أنا الذي سأعتني بكاديشون ، فأنا أحبه وأعرف أنه يحبني أكثر من الآخرين .

الجدة :

– ولماذا تريد أن يحبك كاديشون أكثر من الآخرين ؟ ليس هذا عدلاً .

جاك :

– إني أحبه أكثر من الجميع ولذلك فهو يحبني ، حتى حين كان شريراً وتخلى عنه الناس جميعاً كنت أحبه وأعلم أنه سيعود إلى فعل الخير ، وأظنه سيبقى طيباً ، أليس كذلك يا كاديشون ؟

أسندت رأسي إلى كتفه فتعالت ضحكات الآخرين ، وتابع جاك :

– ألا تريدون يا أولاد عمي ويا بنات عمي أن يحبني كاديشون أكثر منكم ؟

وصاح الجميع مهللين :

– نعم ، نعم .

جاك :

– ألم أحبه أكثر منكم ؟

وصاح الجميع :

– نعم ، نعم .

جاك :

– أرأيت يا جدتي لماذا يحبني كاديشون أكثر من الآخرين ؟ لأني لم أتوقف عن حبه ، ولأنني لم أفقد الثقة فيه .

الجدة :

– هذا هو غاية مطلوبي ، ولكن من يعتني به إذا كنت غائباً ؟

جاك :

– سأبقى بجانبه على الدوام .

الجدة :

– لا يا ولدي ، ستذهب مع بابا وماما حين تنتهي العطلة .

وقف جاك حزيناً ويده حول ظهري ، ورأسي مستند إلى كتفه ، وفجأة أشرق وجهه :

– يا جدتي ، ألا تعطيني كاديشون ؟

الجدة :

– سأعطيك كل ما تريد يا حبيبي ، ولكنك لا تستطيع أخذه معك إلى باريس .

جاك : نعم ، لا أستطيع ، ولكن احتفظي لي به عندك ، وحين يكون عندنا قصر ومزرعة آخذه معي .

الجدة : نعم سيكون لك حين يكون عندكم قصر ومزرعة ، وأثناء ذلك سيعيش معي هنا ، وربما عاش أكثر مني ، ولا تنس أن كاديشون هو لك ، وأنا أعتني به من أجلك .

خاتمة

منذ ذلك اليوم ازداد حب جاك لي وعطفه علي ، وقد فعلت ما بوسعي لكي أكون لطيفاً نافعاً لكل أفراد العائلة .

وقد تأكد لي أني لن أكفّر عن سيئاتي الماضية وشروري التي فعلتها إلا بالعمل الصالح ، وبذلك يزداد تعلق الناس بي وتقديرهم لي ، فكنت أرعى الأطفال وأمنع عنهم الأذى ، وأحميهم ضد الناس والحيوانات الشريرة .

وكان أوغست يتردد على المزرعة ، ولم ينس يوماً واحداً أن يزورني في زريبتي كما وعدني ، وكلما جاء كان يهديني شيئاً أتلذذ به : تفاحة أو إجاصة أو خبزاً أو قطعة ملح أو حزمة جزر ، وباختصار : كان لا ينسى أن يهديني شيئاً يدخل السرور إلى نفسي ، وتأكد لي أنه ولد طيب في أعماق نفسه ، وقد خُدعت بمظهره وحسبته شريراً لأنه يحب المباهاة .

إن ما دفعني إلى كتابة هذه المذكرات هو محاورة جرت بين هنري وأبناء عمه ، فقد كان هنري يزعم أني لا أدرك ما أفعل ، ولا أفهم دوافع ذلك ، وأما أبناء عمه ، وخاصة جاك ، فكانوا واثقين من

ذكائي وحبي لعمل الخير ، فانتهزت فرصة سنحت لي وهي ذلك الشتاء القارس الذي اضطرني برده إلى البقاء في زريبتي ، فعمدت إلى تدوين بعض الأحداث الهامة من حياتي .

ولعل هذه المذكرات تدخل بعض البهجة والمرح على قلوب الصغار ، ولكنها ستؤكد لهم أنك إذا أحسنت إلى الناس استعبدت قلوبهم ، وأن المظاهر خادعة ، فقد تظن أن بعض الناس أو الحيوان على قدر كبير من الغباء ويكون في الواقع شديد النباهة والذكاء .

ولا تنسوا أن للحمار قلباً ينبض بالحب ، وهو مخلص لمن يحسن معاملته ، واعلموا أن حب الانتقام أسوأ صفة تكون في الإنسان وفي الحيوان ، وقد رأيتم كيف أشرفت على الهلاك بسبب حبي للشر ورغبتي في الانتقام ، ورأيتم كيف كسبت عطف سادتي وأصدقائي من الأطفال ومن الحيوان لأني أصبحت وديعاً ، محباً للعمل الصالح ، مسارعاً إلى الخيرات ، متسامحاً مع الناس .

مر زمان طويل وصديقي جاك يعتني بي ، وقد أصبحت حماراً هرماً ، ولكن الحمير تعيش طويلاً ، وما دمت قادراً على السير فسوف أجعل قوتي وذكائي في خدمة الإنسان والحيوان ..

الفهرس

روايات عالمية للناشئة

مذكرات حمار

كونتيسه دي سيغير

H. FARHAT

RABIE

من 10 - 16 سنة